غادة السمان

الجسد حقيبة سفر

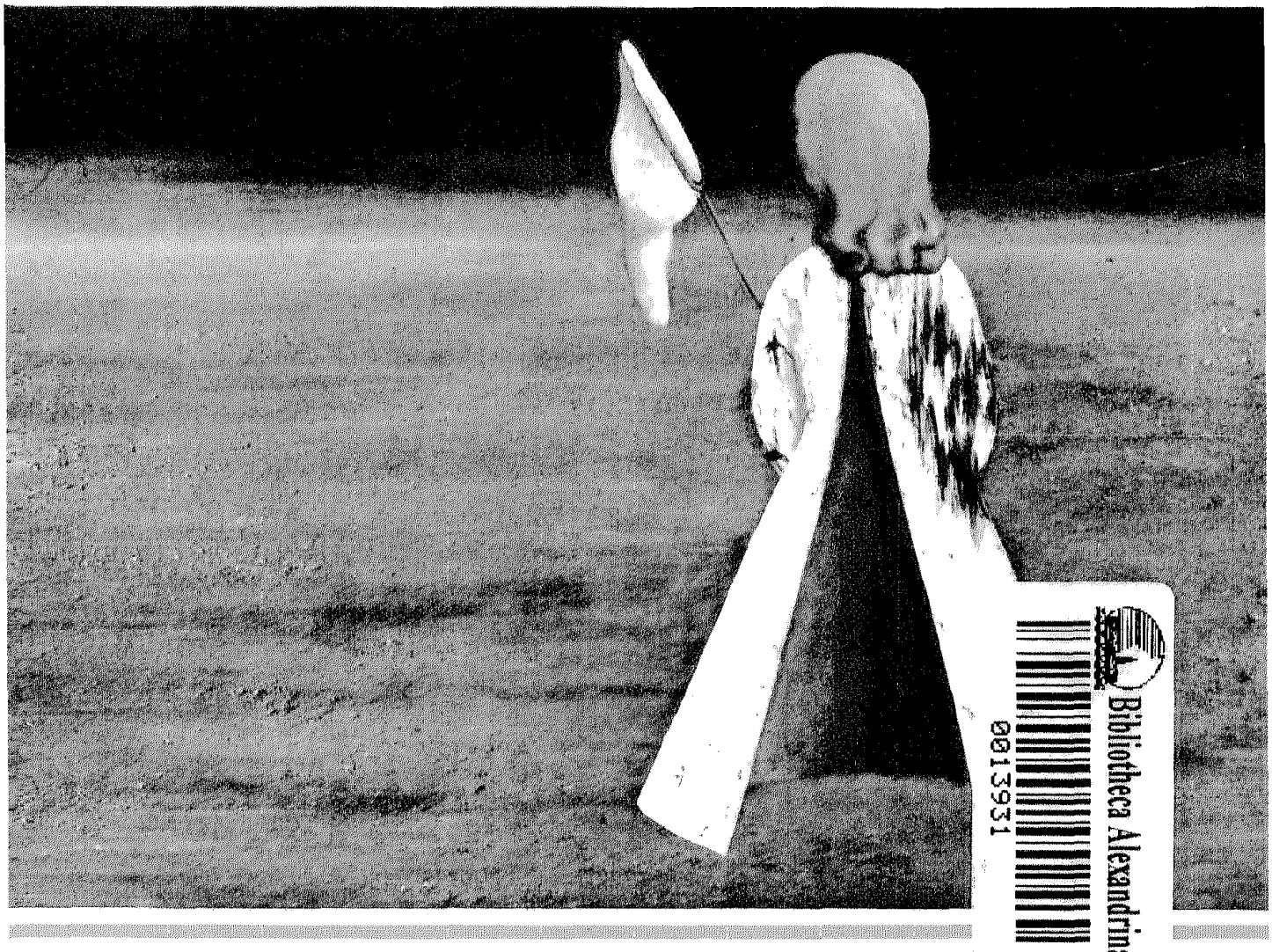

Bibliotheca Alexandrina
0013931

منشورات غادة السمان

الأعمال غير الكاملة ٢

Akhawia.net

مقدمة ١ . .

بقلم سواي !

ليس هناك أفضل من عدم الاستقرار لتحريض الفكر.. وهو مكروه طبعاً لأجل ذلك (البير كامو) . أريد أن أهرب من عيون العالم الى زاوية هادئة استطيع فيها أن أصبح سيدة نفسي ، فهناك مناح كاملة من شخصيتي لا أفهمها : وإنني احتاج الى الوقت الكافي لفهمها (لورانس داريل) . إن ما يعطي السياحة قيمة هو الخوف . فيتحطم في داخلنا بعض من كياننا الداخلي ، فلا نستطيع أن نداور ـ أو نخفي أنفسنا وراء ساعات المكتب والعمل . ان السياحة تنتزع منا هذا الملجأ الأخير .

. . . عندما نكون بعيدين عن ذوينا ولغتنا ، وقد اقتُلعنا من دعائمنا ، وجُردنا من اقنعتنا ، نصبح عندئذ على سطح ذاتنا بكليتنا (كامو) . إليكم ما كانت تمثله لي أوروبا ذات يوم : القدرة على التكلم بحرية ، وعلى أن أفهم ، وأن أُقبَلْ . أرض الصداقة الحقيقية . منزل الفنان والمتشرد والحالم (هنري ميلر) . إن الذي حدث لي شيء بسيط . لقد شعرت فجأة برغبة نحو المستحيل (كامو) . أنا في لندن ، وقد قذفت بنفسي في مباهج سوهو باحثة عن حرية اسطورية أريد أن أمتصها وأعيشها بعمق . . . . . . وجدت أن الحياة البوهيمية الفوضوية جافة مملة ! (كولن ويلسون) ماذا أريد ؟ عملاً جديداً . . في مكان جديد . . وتحت ظروف جديدة (شارلوت برونتي) . إني لا أتوقف أبداً عن التأمل في الفن وفي كل نوع من أنواع التجارب التي تلقي الروح في غمرة . . العتمة ! (داريل) . كل ما يجب عليكم ان تعرفوه هو اقتناعي وقتذاك بانني اتقمص حياة مسحورة كما لو كان ذلك بفعل قوة سحرية . (مورافيا) آه يا صديقي . أتعرف ما هو المخلوق المتوحد حين يتجول في المدن الكبيرة ؟ (كامو) . نحن الذين سافرنا كثيراً ، وأحببنا كثيراً ، وتألمنا كثيراً ، وحدنا نستطيع ان نقدر المزايا المتشابكة لعواطف الرقة ، وان نفهم ارتباط الحب الوثيق بالصداقة (داريل) ذهني فارغ . قلبي نازف . ليس لي شخص يحيط بي ، ولم أجد شيئاً قط ، حتى ولا صديقاً (هنري باربوس) . عندما تتكاثر المصائب يمحو بعضها بعضاً وتحل بك سعادة جنونية غريبة المذاق . وتستطيع ان تضحك من قلب لم يعد يعرف الخوف (نجيب محفوظ) أواه اي عذاب الا يكون المرء غنياً . ان هذا يضعه في مواقف كريهة (سارتر) أليس مؤلماً اني ـ لكي أرى عالمنا العربي ـ لا بد ان اصبح بعيداً

Akhawia.net

غريباً في لندن ؟ (يوسف ادريس) . . . روحي كالعبد الذي أُعتق ، تعود الى مفاوز الماضي . كان يكفي أن أشم رائحة الحطب المحترق كي أعود الى بيتي واصدقائي ، أو شميم لحم مشوي كي أرجع الى طفولتي واعيش مجدداً في شتاء مدينتي (فانتيلا موريا) أحلم بالصداقات الضائعة ، بالزمن الذي انقضى ، بالرفاق المنسيين منذ زمن بعيد . احلم ببيتي . . . احلم ببحر مياهه حية ، وبسماء لها ثلاث شموس (دين ـ ر . كونت) . احذر الذكريات كما تحذر من ساعة واقفة (جورج شحادة) . ان بي صفة غريبة : هي انني يمكن ان أكره الأماكن والاشياء ككرهي للاشخاص تماماً (دوستويفسكي) .

وتقول لنفسك : سوف أرحل
الى بلاد أخرى . الى بحار أخرى .
الى مدينة أجمل من مدينتي هذه
من كل جمال في الماضي عرفته . . .
لا أرض جديدة ، يا صديقي هناك
ولا بحرَ جديداً : فالمدينة ستتبعك
وفي الشوارع نفسها سوف تهيم الى الابد
وضواحي الروح نفسها ستنزلق
من الشباب الى الشيخوخة
وفي البيت نفسه سوف تشيخ وتموت ! . .

. . . . . .

لا سفن هناك تجليك عن نفسك
آه ! ألا ترى ،
انك يوم دمرت حياتك في هذا المكان
فلقد دمرت قيمة حياتك
في كل مكان آخر على وجه الأرض ؟! . . .

(الشاعر اليوناني كافافي)

Akhawia.net

مقـدمـة ٢ . .
بقلمي ولن أكتبها !

هذه مسودة العناوين التي كنت اعتزم إطلاقها على هذا الكتاب ، وهـي برقيات تلخيص له ، وومضات شرارية تعرّف به .العناوين وفقاً لتاريخ ورودها الى الورقة :

رحلت . . . كتبت . .
تقاسيم على عود الغربة
تقاسيم غير منفردة على عود الغربة
رحيل داخل المرآة
نملة وحيدة في مملكة الحزن
مواطنة في مملكة الترانزيت
مساء الخير ايتها الغربة
أعمد نفسي مركباً ليلياً
وداعاً عالم الفنادق المكهربة
رحيل الى الوطن
الرحيل سجن
كل الطائرات تقلع الى الوطن
دفتر الغربة
أرحل . . . ويحتلني الوطن
مسكونة بوطني . . أرحل
أرحل . . . والوطن يسكنني
كيمياء الرحيل
دوماً . . أرحل الى الوطن
لا سفن هناك تجليك عن نفسك
لا سفن تجليك عن نفسك . .
سمكة وحيدة

Akhawia.net

أوراق الغربة تتطاير
كيمياء الرحيل
كيمياء الرحيل
مرمية من كوكب ما
مغناطيسية الوطن
فتاة الاوتوستوب
إنه الرحيل
رحيـــل
رحيل في مدار الوطن
اعلن نفسي جمهورية مستقلة
أختام . . . في جواز سفر
في ليل المدن النائية
محاولة الرحيل خارج سور الأفق
أختام . . . في جواز سفر
من الوجه الآخر للقمر . . اعود
أختام . . . في جواز سفر
أوراق مغسولة بالمطر
كلمات . . في ضبـاب المطـارات (السجـع رهيب في هذا العنـوان ولكننـي لم اتعمده ! . .)
لا سفن تجليك عن نفسك . .
الجسد وحده يرحل
الجسد حقيبة
الجسد حقيبة سفر
الجسد حقيبة سفر (ترحل إرغامياً من الولادة الى الموت وبينهما رحـلات أخـرى استطلاعية ؟) . . .
الجسد حقيبة سفر ؟ (ما بين النهرين نهري الحياة والموت ، ونهرنا الذي نبدع)
الجسد حقيبة سفر ؟؟؟
الجسد حقيبة سفر ؟؟؟ . . .
الجسد حقيبة سفر

Akhawia.net

ملاحظة : إذا اعجب القارىء بعنوان ما منها اكثر من العنوان الـذي اخترتـه ، فليشطب عنواني عن الكتاب وليكتـب « عنوانـه » ، وانـي أبـارك مشاركتـه هذه ـ ولـو الرمزيـة ـ في الكتابة معي ! . . .

Akhawia.net

الاهـــداء

اهدي هذا الكتاب الى حبيبي الدمشقي العتيق سلمان الاخضر ، والذي صار اسمـه « سـام » ، والـذي نسي اللغـة العـربية ، والــذي لم يعــد بوسعــه قراءة هذه السطور . . . ولم أعد اعرف عنوانه . .

لذكرى رحيلنا معاً الى اوروبا من سوريا منذ ١٤ سنة ، لم يعد هو بعدهـا الى الوطن العربي أبداً . .

الى جرحه المُتقن التخدير ،

والى جذره المقطوع كالشريان ،

والى وجوده الطحلبي الحزين

والى دمعتي السرية كلما فاجأني في الحلم .

غادة

Akhawia.net

لندن ٦/ ٧/ ٦٤

بـداية زمـن الرحيل

واستقبلني الصقيع بلندن . وتذكرت ان الشمس غابت مع وجه « من » ودعني في مطار بيروت ولم تشرق منذ تلك اللحظة . ساعتي كانت تشير الى السادسة . قلت فلتكن ليلة شتاء اقضيها قرب الموقد .

وجاءت السابعة . والثامنة . والتاسعة . والعاشرة ولم تظلم السماء . تحولت الى عين إنسان آلي : كبيرة ومفغورة ورمادية . بلا أهداب ولا دموع . . وانا كاهنة من الشرق حيث الليل لا يعرف الزيف . . . فيه ظلمة وحنين وتراتيل غامضة . والليل هنا لوحة ميتة مدقوقة في الاعلى لا فرق بينها وبين ديكور السقف ، والقمر ، شاعر السماء الجوال لا يتسلق اطاراتها . وهنا ادركت ان العتمة لا تسود في لندن قبل الحادية عشرة فيما يدعي مجازا الصيف . وادركت معنى سحر الشرق بالنسبة للفتيات الانكليزيات . وليل الصحراء الذي لم يصبه عفن هباب المداخن ـ بدفئه وقمره ـ يشكل عنصراً اساسياً من عناصر ذلك السحر .

وقلت ما دام ليل بلادي كالقطع النادر في هذه البلاد ، فلأر ليلهم . . .

ورأيت . . .

واقتنعت بان لندن هي التي تنفذ ما يشاع عن باريس . واذا كانت باريس تخفي عينيها بينما هي تتعرى فإن لندن تظل تصر على قبعة الراهبة فوق رأسها اثناء ذلك ! . .

ومجون لندن طريف ومن نوع خاص . . انه مشوب بكثير من مظاهر المحافظة . .

فأبواب الملاهي من الخشب البني العتيق ، ولها وقار استاذ جامعة ، ويخيل لمن يراها قبل ان يدخل انه سيجد خلفها قاعة محاضرات او قاعة محكمة ، وحينما يصبح في الداخل لا بد له من ان يطلق شهقة دهشة قبل ان يبدي استنكاره او استحسانه . . ان اي شيء لا يمكن ان يخطر بالبال يحدث هناك . .

وفي ازقة سوهو تستحيل الحياة ثديا جميلا يقطر سماً ! . . احساس عجيب بالقلق والتوتر يغمر كل من يعبر هذا الشارع ، ينبع من كل مكان دون ان ينشأ عن مشهد معين ، مما يزيد في غموض الخوف الشاحب ، ويحس الانسان بانه يواجه هنا عدوا مجهولا لا يعرف شكله او طبيعته ، ويكتشف بان هذا العدو من بعضه ، من بعض اظافر التنين

Akhawia.net

المروض في ذاته . . والجو مشحون بنبض الترقب . . إن خنجرا ما سوف ينطلق من خلف اية نافذة معتمة . . عند كل منعطف قد تنفجر مفاجأة ، ضحكة ملونة كفقاعات حمام غانية . صرخة نشوة ام عذاب . من يدري ؟ وشعرت بأنني اسير في حقل مزروع بالالغام . . . وتذكرت كتاب كولن ويلسن الجديد (تسكع في سوهو) الذي كنت قد بدأت بقراءته منذ ايام ، لقد استطاع الكاتب ان يحمل جو الازقة الى صفحاته . كانت حروفه تسكب ذلك الضوء الاصفر الرعديد الذي تسكبه مصابيح الشارع . . وكانت رائحة الخوف والقلق والسأم المتوتر تفوح من الاوراق . . . رائحة العصر . . وتذكرت بيروت ، وشارع بلس أمام جامعتي ، ووداعته التي أتاملها من نافذة الصف كلما ضجرت من سعة علم الاستاذ ، تذكرت المصابيح التي ليست صفراء ، والاسفلت الذي ينام ببراءة زوجة شرقية في القرن التاسع عشر(أم أنها ليست بريئة؟).سوهو عندنا تختبىء خلف الجدران ، خلف النوافذ التي تطل على الاسفلت الوديع . .

وفي « مقهى مصطفى » التقيت بالروكرز (من فروع البيتلز) إنه مقرهم شبه الرسمي . . ومصطفى صاحب القهوة ذات الواجهة الزجاجية ـ التي تتحطم كل اسبوع بعد كل مشاجرة ـ رجل باكستاني الاصل . . وجهه شرقي وسيم وعيناه تحملان غموض الشرق واسراره . وفي خديه قسوة وحشية لمروض افاع مسحورة . . وله سطوة روحية على الشبان حوله ، انهم يحدثونه بود واحترام ويخيل الي ان في تقديرهم له تعبيراً عن جوعهم الى حياة روحية ما زال الشرق يمثلها في ظنهم . . في احد الاركان يجلس الفيس برسلي (اكتشفت فيما بعد انه شبيه له) ، يعزف على جيتاره ويغني بصوت حزين تارة ـ يذكر بأنين حيوان مرمي على تلة رماد كانت مدينة احرقتها الحرب ، ـ ثم بصوت متمرد ثائر احيانا يوحي بطفل ضائع في بيت مجانين يحطم كل ما في طريقه احتجاجاً وتذكيراً لمن حوله بأنه في حاجة الى العطف . . وغناؤه هذا وما يوحي به هو في نظري التعبير الصادق لمشكلة البيتلز وفروعهم . . انهم نوع من احتجاج الانسان على الصف الطويل الذي ينتظمون فيه أثناء النهار ، كل يحمل صينيته ، ليأخذ طعامه بدوره . . والصينيات متشابهة ووجوههم متشابهة ولا فرق ان تشابهت اسماؤهم أم لا فلكل منهم رقمه في سجل العمل . . انهم ملايين من قطعان النمل التي تؤدي واجباتها باتقان لكن عقلها بلا إله . . لقد فقدت أوثانها ولم تجد البديل بعد . . يخيل اليها احيانا أن البديل في الجنس ، فتسقط في تيار الخيبة اللزجة ، ويخيل اليها ان البديل في الثروة فتصاب بلعنة ميداس حينما يستحيل الذهب رتابة ومللا . .

Akhawia.net

وقال لي احد افراد الروكرز . وكان كبقية رفاقه يرتدي (بلوفر) من الجلد : ان كل انسان يختلف عن الاخر . . لكل خصوصيته التي يتميز بها ، لذا فاننا نرتدي ثيابا جلدية تميزنا . . (ولكنهم في شكل تمردهم هذا سقطوا في الرتابة ايضا . . تحولوا الى قطيع جديد من الافراس ، ولكنه قطيع مسرج . . ان اللجام ما زال هناك ، على الذهن الذي فقد بريق التفكير باشياء لا تؤكل ولا توضع في فراش . . ان الخلاص لا يكمن في تغيير قناع المهرج ، الوجه الحقيقي هو الذي يجب ان يعرى . ان الانسان الحقيقي الذي لا يكفيه ان يأكل وينام هو الذي يجب ان ينطق ويحتج ويعلو صوته) . .

الحب مثلا . . الا يمكن ان يكون نوعا من انواع الخلاص . . نسمة رطبة في هذا الجحيم ؟ . . ان الحب في نظري هو اسباغ صفة الخصوصية على انسان ما وبالتالي تمييزه عن افراد الجنس البشري اجمع بحيث لا يمكن ان يسد فراغه اي انسان آخر او يحل محله . .

الحب . . وضحكت من نفسي في اليوم التالي حينما شاهدت عددا كبيرا من الشبان في الشوارع وقد اطالوا شعرهم وبدت خدودهم طرية وناعمة . وفي المترو جلس احدهم قربي فلاحظت ان طبقة من حمرة الشفاه تكسو شفتيه ورائحة عطر نسائي تفوح منه . . الحب ! وضحكت من اسطورة انسانية يبدو انها في طريقها الى الاضمحلال (وربما التطور) ايام كان الرجل رجلا والمرأة امرأة والحب ديناً . . وعدت أتأمله . . نحيلاً دقيقاً لو اتكأت على صدره لتهشم ، ينتمي الى فئة (المودرنز) . وانهار في نظري وجود كامل من الاشياء التي تشد المرأة الى الرجل . الرغبة في الاحساس بالدفء والاحترام ، اي حب يمكن ان يقوم مع مثل هذا الكائن الهجين ؟؟ . ماذا تبقى له من الرجولة سوى الجنس ؟ . . وهنا ادركت سرا اخر . . . ان مثل هذه الميوعة في الشخصية أي هذا التمييع لمعالم المرأة كأمرأة والرجل كرجل يشكل التربة الخصبة لنمو علاقات جنسية غير مألوفة . . يجعل انتشارها اقل استهجانا . . هذا الى جانب السأم والخيبة بلونهما الشاحب الرتيب الذي يغرق العالم في عيني قرد ضائع قضى يومه في جحيم من الآلات . . الآلات الافراد . . والعلاقات الآلية . . حينما تصبح التحية مثل دورة آلة قاطع التذاكر لا معنى لها ، ومحتومة ، وباردة . . والعناق حركة رتيبة (تَذْكَرَتُها) فنجان قهوة تسكبه في فم الفتاة ، او تسكبه الفتاة في فم الرجل ، تطلبه باللامبالاة نفسها التي تحشو بها فم آلة الاسطوانات بشلن لتسمع الاسطوانة التي تختار . .

ان الضياع الحقيقي الذي يعاني منه بحدة شبان تلك البلاد ومظاهره المتعددة من روكرز وبيتلز ومودرنز يدل على ان المدنية الغربية الحديثة رغم ما فيها من عظمة آلية قد

Akhawia.net

افلست في منح الانسان السلام النفسي والطمأنينة الاخلاقية . . بل انها تكاد تشوهه وتغير معالمه نهائيا ، ان الحياة الروحية للانسان هناك كقدم فتاة صينية موضوعة في حذاء حديدي كي لا تنمو . . وهذا الجيل ، جيل مرحلة الانتقال الى نموذج جديد من حياة الغاب لقرد ما زال يتعذب ريثما ينسى انه إنسان ! ريثما يفقد وجهه الآخر الذي يستوطن الوجه الآخر للقمر . .

والحرية ! . . الحرية في مثل هذا العالم تلغي نفسها بنفسها لانها حرية الذين استلبتهم المدنية انفسهم . . انها حرية ان تموت كما تشاء لانه لا وقت لدى اي انسان كي يمنعك . . وهي حرية ان تنحدر كما تريد لأنه لا أحد يهمه امرك لينتقدك او يأسف من اجلك . . انها حرية لا مبالاة الجماعة بك ، وليست حرية تنبع من اعترافها بكيانك . . انها حرية التأمل تمنح لأعمى . . حرية الاكل لمن استؤصلت معدته . . حرية المركب في ان يبحر حيث يشاء في وجود بلا بحر . .

وفي هذه الزوبعة التي تعصف بقيم الانسان في العالم القديم ، تظل الاسرة كمؤسسة ، جزيرة صلبة تطمئن الاقدام اليها ، وما زالت روابطها راسخة لانها تنبع من احساس غريزي بالحنان نحو الاطفال ، ذلك الاحساس الذي لم تغزه آلية الحياة تماما ، وان كان العلم الحديث قد استطاع تشويش بعض ما تحمله روابطها من مغزى تقليدي حينما اخترع التلقيح الاصطناعي حيث يزرع في رحم المرأة طفل رجل ما كأنها ليست اكثر من حوض نباتات ! . .ولكن ، لماذا نقول « حوض نباتات » اذا تم ذلك باختيار واع منها ؟ أليست اكثر الزوجات في بلادي مجرد أحواض نباتات تحتضن ما يزرع ما دامت لا تختار زوجها بنفسها ؟

وبعد ،

طيلة هذه الأيام كنت كفتاة علقت ضفيرتها بمسننات آلة ضخمة تدور بلا توقف ، والآلة تلف بي بلا رحمة ، تسحقني بين مصفحاتها وتعلو بي في الفضاء لتضربني على الأرض ثم تدور بي من جديد . . .

غدا اعود الى الشمس .

Akhawia.net

باريس ١٣/ ٧/ ١٩٦٤

تقاسيم على عود الغربة

أول ما طالعني في باريس صدمني . جعلني اتساءل : ماذا حدث للفرنسيين ؟ ولماذا يشوهون عاصمتهم بهذه الصورة ؟ فالابنية في باريس كما في المدن العريقة الكبيرة جميعاً . تحمل احجارها آثار الزمن هباباً أسود ، فتبدو رمادية اللون معتقة الزوايا . كأن تاريخ الشعب بأكمله مكدس في زوايا الجدران . كل ذرة مغبرة انشودة نصر ، او حكاية هزيمة . كل موضع رصاصة قصة محارب . كل حجر ، اسطوانة سوداء سُجلت فوقها ملايين الصرخات والظلال ، ولحظات الصمت والتحفز . فيها من المناقشات والخطط التي تحولت ذات يوم الى ثورة ، وفيها من اسئلة مشحونة باللهفة عن اخبار نابليون ، وفيها ايضاً من مناجاة امرأة ترتدي ثوباً (شارلستون) وتضع على وجهها نقاباً من الشبك الاسود مع رجل طويل السالفين يضع على رأسه قبعة مرتفعة ،ويرجو سائق عربته التمهل بينما يعلو من مقهى مجاور خشبي الواجهة لحن (الكومبارسيتا) ممزوجا بابخرة النبيذ .

لذا دهشت لما رأيت العمال وقد تسلقوا سلالمهم وحملوا مساحيق التنظيف الاميركية ، ينظفون بها عن الجدران ماضيهم . يمسحون آثار الاعوام عن وجوهها المغبرة الغنية بايحاءاتها . . وإذا بالابنية التي تم تنظيفها هجينة المنظر ، كأنها لم تحمل ذات يوم بصمات النار والريح والشمس والناس . . . كأنها لم تكن ذات يوم سجلاً ثميناً وصفحات حية أو نصباً تذكارية لتاريخ شعب عريق .

ما زال العمال يطلون خدي باريس بالبودرة ، يبيضونها ، ترى هل تنقذ المدينة الحلوة نفسها ؟ ان مشهدها ذكرني بمنظر رجل جاهل يحاول تنظيف وعاء اثري وجده في حديقته وتلميعه ، دون ان يدرك ان قيمته تكمن في بصمات التاريخ عليه . . ترى هل تنقذ المدينة نفسها قبل ان تتحول الى ما يشبه المدن الكرتونية التي تبنى داخل استديوهات هوليوود ؟

واذا استطاع الفرنسيون ان يبرروا عملية شد الوجه هذه لباريس بحجة النظافة ، فلا اعتقد ان بوسعهم ذلك بالنسبة لقلاعهم وقصورهم الاثرية . . قصر شامبور مثلاً رأيته وقد تم تنظيف نصفه ، فصار ناصع البياض كعجين لم يخبز ، وصار التناقض في هيئته مزعجاً بعد ان فقد الانسجام بين طراز بنائه القديم ونظافته المستحدثة . في القصر عشرات

Akhawia.net

اللوحات والمقاعد والسجادات الاثرية التي نجت الى حد ما من حريق ترك آثاره فيها . ترى هل يفكرون ايضاً بإرسالها الى مصبغة للتنظيف على البخار ، أم انهم سيبدلونها بستائر مودرن ومقاعد (سليب كونفورت) ؟

ما الذي حملني الى قصر شامبور ، والى اورليان وتور وشارتر ؟

الواقع انني لم امكث في باريس طويلاً ، فقد مضيت الى الريف لألتقي بالفرنسيين لا بالوجه السياحي لفرنسا فقط .

في الريف التقيت بفرنسا الحقيقية بابنائها ونسائها الذين يبنون مجدها بصمت .

لا أثر للتهتك في الريف الفرنسي . رابطة الاسرة قوية ، وسطوة الدين ما تزال مهيمنة على الرؤوس الطيبة الساذجة . والمرأة في الريف شيء يختلف تماماً عن الصورة التقليدية التي رُسمت في اذهاننا عن المرأة الفرنسية قياساً على ما نسمعه عن باريس او نراه فيها .

رأيتها خادمة في المطعم . ورأيتها أماً تدفع بعربة اطفالها في الشارع . وفتاة في أبهى حلة ذاهبة الى الكنيسة ، وزوجة تتأبط ذراع زوجها ، وفلاحة ، وبائعة . . وكانت في الحالات جميعاً امرأة عاملة ، ولم تكن نحيلة القوام كما نيكان لأنها تعمل حقاً كالرجل ولا وقت لديها لحساب الكالوريز و (النقاط) الحرارية الموجودة في (قطعة البفتيك) . ولم تكن متهتكة او مبتذلة ، وإنما رأيتها بسيطة المظهر واللفتات ، واعتقد ان حقيقتها الرائعة هذه تخيب دوماً آمال الذين يسمعون (الكثير) عن المرأة الفرنسية ، ويبنون على هذه الاساطير كثيراً من الآمال .

لقد احترمت الفرنسية في الريف كما احترمت المرأة العاملة في باريس ، إنها تختلف كثيراً عن تلك الموضوعة في واجهات مخازن بعض شوارعها للدعاية . وشأن باريس في ذلك شأن أية عاصمة سياحية أخرى ، كبيروت مثلاً . المرأة الفرنسية (الغانية) التي تجتذب الرجال من انحاء العالم جميعاً هي الطبق الذي يطهوه الفرنسيون لضيوفهم فقط ولا يتناولونه . إنها تختلف تماماً عن طبقهم الشعبي الشائع : المرأة الجادة المحترمة ذات الضحكة الحلوة . والوجه النظيف والقامة الممتلئة . مدينة اورليان مثلا تنام باكملها قبل العاشرة ، ليس فيها ملهى واحد ، ومكان التسلية الوحيد فيها هو السينما كما في حمص مثلا او اية مدينة سورية محافظة .

ومع ذلك ، لم يخل شاطىء نهر اللوار من مشهد عاشقين انتقيا ركنا مظلما يتبادلان فيه القبلات لكنني لم ار أي عاشقين يستعرضان عواطفهما في النهار على مسارح

Akhawia.net

الشوارع ! . .

وفي « روان » أصر الدليل ، رغم تعبنا ، على جرنا الى ساحة من ساحات المدينة فيها تمثال لجان دارك ، ثم قال بلهجة مسرحية ملؤها الخشوع والتبجح : هنا احرقت جان دارك . . . قديستنا . .

وضحكت بصمت ومرارة . . ففي بلادي مئات من جان دارك يصلبن في كل مكان وبألف اسلوب واسلوب ، يحرقن ببطء دون ان يتجمهر الناس ، ويمتن ببساطة دون ان يقام لهن نصب او حتى يحفر لهن قبر ، ولا يطوف بالناس حولهن دليل . . هل من الضروري ان نستعين بالة الزمن التي ابتكرها (ويلز) لنعود القهقرى ونرى جان دارك تتلوى على عمودها وتشهق بحثاً عن الهواء والنار تأكلها ؟؟ . . لماذا لا يأتون الى بلادي ليروا الف الف جان دارك تحرق بلا لهب وتموت دون احتجاج ! .

وتتعاقب المشاهد البشرية ، وتتوالى المتناقضات . . ويبدو ان الموضات لا تتناول الازياء والازواج فحسب وانماانتقلتعدواها الى الاطفال . . وبعد ان ولعت الفرنسية بتبني القطط والكلاب تبدلت الموضة الآن الى تبني الجرذان . . لقد شاهدت في البداية امرأة ربطت شيئا صغيرا جدا على الارض يركض خلفها ، ظننته في البداية قطاً قزماً ولما اقتربت منها دهشت اذ وجدته فأراً جميلاً . . ثم اعتدت على هذا المنظر بعد أيام ، ولا احتجاج لدي على الفأر كفأر فهو مخلوق جذاب ويكاد يضاهي العصافير بجماله وها هو ذا ايضا مزاحم جديد على لقمة انسان ما جائع . .

والريف في فرنسا صحراء خضراء شاسعة ، انه رائع وشاسع حتى الرتابة وحتى الاحساس بالصحراء . . وباريس المدينة الجميلة كحديقة مثل يحتذى بالنسبة لبقية المدن . . ففي مونبيزون وفي تور رأيت حوضا لازهار جميلة ملونة على طول الرصيف ، ولوحة امام الحوض كتب عليها ان هذه الازهار هي هدية البنك الى الناس ! . . هدية من العواطف في القرن العشرين . . ترى هل تفضل ان تصلك من البنك عدة اوراق نقدية كهدية ، او عامل يزرع زهرة امام باب بيتك ؟ اظن ان ذلك يتوقف على مزاجك الشخصي وعلى مزاج صاحب البنك الذي اختار ان يكون رومانتيكيا في موضوع الهدية ، وفي رومانتيكيته هذه منتهى حذق رجال الاعمال .

واخر ما يثير اهتمام الغريب في المطعم الفرنسي هو الطعام (حتى ولو كان جائعا) . ان المطعم الفرنسي قمة في الذوق والترتيب ، ومتحف لعراقة الشعب وحضارته . . فمن صحن علقه الاب على الحائط ، الى مقعد انيق في الركن انتقاه الجد ، وستارة خلفه

Akhawia.net

عقصت بطريقة خاصة . الى لمسة خاصة في اسلوب ترتيب المكان . . هذه الاشياء تجعلنا نحس بأن الجمال الحقيقي لا يصنعه مهندس الديكور وانما هو حصيلة اذواق متعاقبة وزبدة فنون اجيال . .

والطرقات في انحاء فرنسا كلها منظمة بشكل يدعو الى الدهشة . . ان الغريب يستطيع ان يتجول فيها من مكان الى آخر دون ان يضطر لسؤال انسان عن الدرب ، اذ لا يقطع عشرة امتار الا ويجد لوحة تحمل رقم الطريق الذي هو عليه ، ولا يصل مفترق طرق الا ويقرأ الى اين تقود كل درب . . انها تحرم الانسان من لذة ان يضيع ! . . ويبدو ان الانسان يحب ان يضيع احيانا ليكتشف دربه بنفسه ، لقد قدرت هذه الدقة واعجبت بها ولكنني كنت احببت الطرقات اكثر لو تركت لي شيئاً . . الدرب الوحيدة التي تمنيت ان اسير فيها كانت ضيقة وعليها لافتة تقول : طريق لا توصل الى اي مكان . . تجنبها !! . . .

Akhawia.net

روما ١٠/ ٨/ ٦٤

أعمد نفسي مركباً ليلياً

مئات من الوجوه الحجرية ، مئات من الاجساد الرخامية تطل من كل مكان . . . من أعلى الابنية تصطف كالعساكر ، امام الابواب تنتصب ، فوق النوافير ، بين المياه المتدفقة غالباً من افواهها ، في الساحات . . . تماثيل في كل مكان ، جميلة ، دقيقة الصنع حتى لترهف السمع لتلتقط ما تتأهب لتقوله ، او تكاد تمد يدك مصافحا . . انها روما ، المدينة التي نصف سكانها (النصف الحلو) من التماثيل ، لكن النصف الاخر لم يتحول الى آلات بعد . .

في لندن مثلا كنت اذا راقصت شابا اقترب بوجهي من وجهه لأتأكد من انه يتنفس حقاً . . . واذا دست على قدم رجل ما في المترو فانني لا اعتذر لانه لا يحس بي . . انه آلة لم يدخل صانعها في حسابه حوادث تافهة من هذا النوع . . اما في روما فالجو النفسي يوحي منذ الوهلة الاولى بأن حادثة تافهة كهذه يمكن ان تؤدي الى حرب داحس وغبراء جديدة . .

الناس هنا لا يركضون بجنون فئران في انبوب اختبار مكهرب ، ما زالوا يتلكأون امام الواجهات ، ويصفرون ـ على الاقل ـ اذا مرت بهم فتاة جميلة ، ويمضغون الطعام قبل ابتلاعه ، وينامون دون جرعة من الدواء المنوم ، ويفكرون بابتياع طوق ياسمين للحبيبة بدلا من سؤالها : كم تريدين ؟ . . . وما زالوا ايضاً ينثرون العربات التي تجرها الاحصنة في مدينتهم اعترافاً منهم بأنه ما زال فيها بعض الناس الذين يفضلون ان لا يصلوا بسرعة . . إن مشهد هذه العربات ملأني طمأنينة ، ذكرني بانني لم ابتعد كثيراً عن بلادي ! . . . حتى الابنية التي احس دائما ان لها وجوها كوجوه البشر ، فرحت لما وجدتها مألوفة كوجوه ابناء الجيران ، كوجوه ابنية المعرض او سوق الطويلة ، بخدودها الصفر الموسخة وعيونها المربعة ذات الزجاج المغبر ، وطوابقها غير المرتفعة التي لا تتعدى السبعة طوابق . .

وهكذا ، منذ الوهلة الاولى ، ينتفي الاحساس بالغربة الذي يصعق الشرقي في اوروبا في البداية . . ولكن عندما يأتي المساء يكتشف ان روما مصابة بازدواج خطير في الشخصية . . . فالابنية الاثرية المبثوثة في انحائها كلها تخلق فيها جوا من الوقار والقدم ،

Akhawia.net

والتماثيل الفنية الرائعة توحي بعالم من الجمال الاغريقي والقيم الصلبة . . ومع المساء تختفي روما الدكتور جيكل وتنتصب روما المستر هايد التي تنافس برقصها الوحشي قافلة المدن التي لا تنام . . وتبهت الابنية الاثرية حتى لتكاد تختفي ، ومع اصوات القبلات في زوايا الشوارع ، والهمهمات والملاحقات وشهقات التعب ، احسست فجأة ان التماثيل العارية بدأت تنبض بالشهوة وتتحرك في اماكنها لتعربد لاهثة ، او تقفز عن قواعدها لتلاحق في الشوارع اشباحا مبهمة لنساء نحيلات الخصور ولتختفي وراءها خلف المنعطف . . . لذا لما هطل المطر الدافىء مع طلوع الفجر ، احسسته نديا منعشا يغسل عن المدينة وتماثيلها وأهلها بقايا احتراق الليلة الماضية . . . او ربما يغسلها ليعدها لليلة جديدة اكثر نهما . . .

وهذا كله يجري على بعد خطوات من مدينة الفاتيكان ، حيث يحج الالاف كل يوم طالبين بركة إلههم . . . وامام الباب الخلفي للكنيسة ، لاحظت وجود بناء متواضع جداً اذا قورن بفخامة الكنيسة وثرائها الفاحش ، وعلى البناء لافتة : بنكو دي روما (بنك روما) . . ترى لماذا لا يحج السياح الى البنك ايضا ويزورونه وهو فاتيكان القرن العشرين الحقيقي ؟ ام ان العبادة في عصرنا كالزواج ، يتزوج الرجل من واحدة وينام مع اخرى ، يعبد إلها ويصلي له في محراب إله آخر ؟ . . .

وعلى ذكر الزواج وهو اخطر انواع السجون ، اذكر انني في البانثيون شعرت بضيق لا يوصف وانا اتأمل القبة الحجرية الهائلة وكوتها الدائرية في الاعلى وانا تحتها كذبابة سجينة تحت قبعة شيطانية مثقوبة . . وكان الدليل فخوراً جداً وهو يقول : هذا من اروع الاثار الفنية لدينا . . تأملوه ببطء . . . وكنت اسير حول الجدران الدائرية العملاقة وقد باغتني احساس ملح : يجب ان اجد باباً ما . . باباً يطل على اي افق ، اي شارع . . ولما وجدت انه ليس في الجدران كلها باب واحد او نافذة واحدة بدأت أحس بالاختناق وفقدت القدرة على تذوق جمال أي شيء حولي . . حتى الكوة في الاعلى احسستها نافذة على إله بخيل لا يعطي من سمائه سوى فوهة بئر جافة . . وازداد احساسي بالاختناق ، وكان الدليل ما يزال يتحدث ، وكدت اصرخ ضيقاً . (إنها جدتي الاولى الاعرابية في أعماقي التي منحتها الصحراء ذات يوم سماءً وأفقاً بلا حساب تأبى أي نوع من أنواع كبت الحرية ولو تحت قبة بانتيون) . . وكان الدليل ما يزال يقول : « هنا مقبرة العظماء . . هنا دفن رفاييل و . . » . . ولم يهزني الخشوع لمشهد مقابرهم المترفة ، تحركت امام عيني في الكوة قافلة من العظماء الآخرين الحقيقيين أيضاً أشباحاً ملطخة بالدم والكفاح الصامت . .

Akhawia.net

السجون القذرة ، الزوايا العفنة الرطبة ، سنوات من الخيبات المريرة دون كلمة شكر ، ارصفة يموت عليها البعض جوعاً لانهم لم يسرقوا . . . البانثيون الحقيقي في تلك الاماكن حجارته لا تحمل اسمى آيات الفن ولا تنظف كل ليلة ، ربما عليها آثار اقدام عارية لرجل او آثار أسنان إنسان كان يجلد . . .

وماذا بعد . . .

ينبوع الاماني . . . وقطع فضية ترمى في الماء . . عيون تغمض وامنيات ترفع الى سماء ما . . وامام ينبوع الاماني لم ابحث عن قطعة فضية . . ولم أرم بها في الماء ولم اذكر امنيتي . فأنا اؤمن بان الاماني لا تتحقق بالأساطير الرومانسية وانما بالعمل وحده ! . . .

Akhawia.net

تونس ١٧/ ٨/ ٦٤

مرمية من كوكب مـا

من خص النافذة الخشبي ، وقفـت أتأمـل قطيعا من البيوت البيض ذات الأبواب والنوافذ الزرق ، المزخرفـة باسلـوب خاص . . . والنخيل . . . وفي الزقـاق رجال يسرعون في عباءاتهم البيض ، والغروب محمر ودام عند التقاء الشمس بالافق . المشهد امامي يصلح غلافاً لكتيب سياحي عن هذا البلد : تونس .

ثم بدأ الظلام يلقي بجسده فوق المشهد ، وكنت ما ازال مغروسة خلف النافذة ، وبدأت نسمات عجيبة تنسكب من بين نقوش خشبها وتفوح حولي . كانت لهـا رائحـة خاصة ، تحمل نغماً خاصاً ، همهمات مبهمة ، طعم بكاء عتيق في امسيات طويلة هرمة .

وغمرني إحساس مرعب : كنت هنا من قبل !

متى ، واين ؟

لست ادري . . . في جيل ما ، في زمن ما ، كنت شيئاً آخر ، لكنني كنـت هنـا بطريقة ما . واحسستني سجينة جسدي ، سجينـة ذاكرتـي البشرية المحـدودة ، وهـذا الشعـور المشحـون بحسرة غامضـة وحنـين مرير يؤكد لي شيئـاً خفياً طالما آمنـت به : التقمص . (هذا الاحساس نفسه غمرني في احد اديرة فرنسا القديمة في « بوجانسي » التـي حولوا جزءا منها الى فندق .

لما دخلت الى ذلك الفندق ـ الدير ، وشممت رائحة الخشب العتيق ، ورأيت درع فارس وخوذته ، وانجيلا قديماً مفتوحاً ، احسست فجأة بانني عدت الى بيتي بعـد غياب طويل . ودون ان انطق بحرف وجدتني انسل في ممر ضيق الفت ارضيته الخشـبية ، حتـى شقوقهـا والتواءاتها كنت اعرفها . ووجدتني ابحث عن لوحة معينة ، كما يحدث في الاحلام اعرف انها هنا في مكان ما ، ووجدتها ! . . ووجدتني اتجه مباشرة نحو غرفة في آخر ممشى فندق بوجانسي ، وموظف الاستعلامات يتبعني بدهشة ، حتى وقفت امام بابها جزعة ، وطلبت منه ان تكون لي .

قال : ان لهذه الغرفة بالذات تاريخاً مرعباً ، ان امرأة قد قتلت فيها ، ولكن ، هل تعرفين الفندق من قبل ؟ وكيف سرت في الممشى وحدك ؟

Akhawia.net

وكنت اختنق ، احاول عبثاً ان ارى بوضوح ، يأكلني عذاب اخرس يريد ان يقول شيئاً ما لكنه فقد لسانه . . ذات يوم كنت هنا ، المناظر التي تطل النوافذ عليها اعرفها ، الجسر والنهر ، رائحة الخشب ، اهتراء « الارضية » ، الاشياء القديمة كلها اعرفها ، واشعر بالنقمة على الاثاث الجديد كأن امرأة اخرى استولت على بيتي ، وادخلت فيه اثاثاً لا احبه) .

اذن كنت في تونس من قبل !

هذا ما اؤمن به واصدقه لانني اعيشه ، وليست هي المرة الاولى التي يصعقني فيها مثل هذا الاكتشاف يمر بي في لحظة وميض كالبرق ، لحظة باهرة الوضوح تضيء الماضي لثانية ، ثم تنطفىء وقد خلفت ما يخلفه النور الباهر في العين بعد انطفائه .

وهبط الظلام . وحيدة ، بلا زمان ، كأنني مرمية من كوكب ما ، ولم استقر بعد على كوكب آخر . وبدأت اتمسح بذكرى اشيائي التي احبها . ابي في دمشق ، بيروت ، اللاذقية ، احاول ان ارتبط بكوكب ما لأتحرر من هذا الادراك المفجع بعجزنا عن ربط ذاتنا الحالية بالتي سبقتها وسبقتها والاولى منها . . . وعجزنا عن اختيار زماننا ومكاننا . وعمر الروح الانسانية حلقات مفككة لا تلملم شعثها ذاكرة واحدة . احسستني ممثلة في مسرح اجباري كبير ، لا ادري اي إله شرير السخرية يرسل بي من وقت الى آخر ، لألعب ادواراً مختلفة ، ويغير في كل مرة وجهي وجسدي ودوري وعصري ومصيري . . . يا انا ! أهذا كل شيء ؟ .

هل يمكن ان يكون ذلك التفسير الوحيد لكل ما يجري ، سر الوجود الذي نلهث وراءه ، ام ان التفسير الحقيقي لم ولن يخطر ببال انسان ؟؟ . .

واعادني رنين الهاتف الى القرن العشرين . ولما فتحت حقيبتي ورأيت ثيابي عرفت دوري في المسرحية . وبدأت استعد للخروج .

ومن خلف النافذة ، هبت هذه المرة اغنيتان : واحدة من الشرق واخرى من الغرب . ام كلثوم وقد اطلقت صوتها وهي تنشد « انت عمري » وماريا كالاس في مقطوعة من احدى اوبرات « فردي » . وكانت الاغنيتان تمتزجان ، تتصارعان ، لا تطغى واحدة على الاخرى . لعل هذه اللوحة الصوتية كانت ملخصاً لكل ما سأشاهده . وقد صدق حدسي . . . كنت في بلد عربي له خصائص البلاد العربية كلها ، بما فيها من التقاء الاصالة العربية مع موجات الاصالة الغربية ، والغاء هذه الموجات بعضها لبعض ، او اتحادها وتمازجها ، او تصارعها . .

وفي كثير من الاشياء كنت اجد ام كلثوم الى جانب ماريا كالاس . حتى في احاديث

Akhawia.net

التونسيين انفسهم : كانوا يتحدثون بالعربية وبالفرنسية ، ولكن مسرحية قدمت على مسرح الدولة الرسمي كانت باللغة العربية الفصحى وسرني ذلك .

وبصورة عامة كان الطابع العربي هو (الغالب) ، وحتى الجمل التي ينطقها الشاب بالفرنسية كانت تحمل عقلية عربية شرقية ، والاخلاق العربية هي السائدة ، واسلوب التعامل العاطفي ، والكرم ، والنبل ، وحرارة القول والعمل ، والوجوه السمر ، والعيون التي تلتمع ذكاء واندفاعاً .

وذات مساء جلسنا نسمر . وكان احد الاصدقاء التونسيين يتأمل زوجته الشقراء باعجاب ، ويحدثنا عنها ويطريها ، وهي تحمر خجلاً وطرباً . وكنت قد اعتدت اللهجة التونسية الى حد ما وصرت قادرة على فهم حديثه ، وفجأة ، لم أصدق انني سمعته يقول : مراتي « زعرة » !

وصعقت . وتساءلت ماذا حدث حتى يشتمها هكذا ، وعلنا ؟ . .

وسألته : ماذا قلت ؟

قال :زوجتي « زعرة » ! هذا اكثر شيء يعجبني فيها !

و« زعرة » باللجهة الشامية تعني لعوب فاسقة .

ووجدته ينفجر ضاحكاً ونظراته تتمتع بالدهشة المشفقة التي انطبعت في وجوه الزملاء اللبنانيين ، ويلحق بعبارته شرحاً لها : زعرة يعني شقراء !! . .

وتذكرت الدعوة التي يؤمن اصحابها بوجوب الكتابة باللغة العامية ، والمبررات القوية والضعيفة التي يسوقونها لدعمها . . وتخيلت اديباً تونسياً يكتب مسرحية او ديوان شعر بالعامية التونسية ويسميه : « زعرة » بدلا من « شقراء » . اية صدمة يصاب بها القارىء العربي لمجرد قراءة العنوان ؟ واية صدمات اخرى يصاب بها وهو يقلب الصفحات ؟ اي تشويه ؟ . . الا اذا اضاف الكاتب ملحقاً او شبه معجم ممسوخ للغة المطلوب من الادباء العرب تبنيها أحياناً .

وتساءلت : اذا كانت لدى الفنان اداة او طاقة متوفرة تمكنه من ان يذيع على موجة قوية توصل صوته الى أكثر من مئة مليون انسان آخر ، وتحفظ كلماته طيلة عصور اخرى ، لماذا يهجرها ليذيع على موجة محلية محدودة لن يتلقى بثها سوى عدد قليل نسبياً ولجيل معين ؟

ولو تركنا جانبا عوامل التاريخ والقومية ، وبحثنا الموضوع على صعيد الادب وحده وتساءلنا : « من هو الاديب » لوجدنا انه انسان في فمه كلمة حق يريد ان يلفظها

Akhawia.net

وتتجدد كلما لفظها . . انه انسان لديه ما يقوله .

وهو اما أنه يختار قولها لنفسه ، وفي هذه الحالة يكون ادبه ذاتياً ، ولن يدهشنا ان يكتب بالمسمارية او الهيروغليفية او الفينيقية او بشيفرة خاصة يخترعها ، او لا يكتبها على الاطلاق .

او ان يقول ما لديه للناس ، وبكامل رغبته وارادته . وهنا عليه مسؤ ولية حُسْن ايصاله كلماته ، والبوح بها الى اكبر عدد ممكن من الناس ، والا فلماذا يفرح الاديب حينما يترجم نتاجه ، ويعتبر ذلك نصراً له ؟ . . والشاعر الذي يستطيع ان يرنح امة طرباً ، لماذا يتخلى عن اسعادها لينشد لقرية ؟؟ . .

* * *

والدار في تونس رجل شرقي ، فيها مزاياه وطباعه وعيوبه . فيها غيرته على اشيائه من زوجة وحياة داخلية ، وحرصه على اخفائها والاستئثار بها . ومن يطل من الباب لا يرى سوى فناء صغير تنفتح عليه مجموعة من الدهاليز والابواب . انه الشرقي لا يطرح اعماقه . وداخل الدار كريمة الجمال والذوق .

وفي دار تونسية خيل الي طيلة السهرة انني في دمشق ، في احد احيائها القديمة حيث الياسمين في الفناء ، والنوافذ الخشبية المحفورة باتقان تطل على فسحة تتوسطها بحرة مياه ثرية . وشعرت بذلك الخيط الذي يربط الاندلس بتونس بدمشق .

وفي تلك السهرة ايضا كان كل شيء مزيجاً من ام كلثوم وماريا كالاس . ففي باحة دار كهذه يتوقع الانسان ان يرى فتيات في ثياب رقصة السماح مثلا ، ورجالا في عباءاتهم البيض الفضفاضة ، وموسيقى العود ، وخادمايطوف بالقهوة المرة . . وعوضا عن هذا كان هنالك رجال اكثرهم شقر في « بدلاتهم » الغربية الرسمية ، وشعورهم التي يلتمع زيتها تحت اضواء « الكازات » ، بايديهم كؤ وس « الجن فيز » والويسكي ، ويتحدثون بالفرنسية والانكليزية وربما العربية . كان اغلبهم من الصحفيين والادباء ونجوم السينما الاجانب . وفجأة اطل شاب اسمر في قميص (سبور) وابتسامة (سبور) وتحية (سبور) ، وكانت اول كلمة ترحيب نطق بها : « اخلعوا ربطات عنقكم » !! . . وامتثل الحاضرون ، وعرفت انه ابن الحبيب بورقيبة ، ورأيت الايدي تمتد باسف الى الاعناق لتحل قيداً قضت ساعات في انتقائه ، وتجميل ربطته . وصار الجميع بعد لحظات اكثر قدرة على التنفس والضحك وصارت الاعماق اكثر رحابة واتساعا ، ولم ينقص شيء من ذكائهم ولا من ظرفهم حينما تخلوا عن « مشنقتهم الاجتماعية » هذه .

Akhawia.net

لماذا يسخر الرجل من المرأة وازيائها واناقتها ؟ . . وهو ايضا ، الا يتصور نفسه انيقا في ربطة العنق ، فيصر على لفها ؟ ولماذا اكسبها هذا المفهوم فجعل منها علامة احترام ورزانة ؟ . . وهل حرية الرقبة تحد من اتزان الشخصية ؟

ألا يستطيع الرجل ان يكون راجح العقل إلا اذا دفع مبلغاً كبيراً ثمناً لانشوطة تعلم من الغرب استعمالها ؟ . . ثم ان الثياب وجدت لتخدم الانسان لا لتذله ، لتحميه وتريحه لا لتضايقه ، وبلادنا ليست كاوروبا ، انها حارة يحتاج الرجل فيها الى تحرير نفسه من اي شيء يضغط على جسده ولذا كان اجدادنا اكثر حكمة يوم اختاروا العباءة وارتدوها ، واكثر مهابة وجمالا من مشهد رجل في هذه البدلة الغربية القبيحة ، التي تشوه في نظري رشاقة جسد الرجل ولا تظهر معالم القوة التي تنبع جاذبيته منها بالشكل اللائق . . وكلمة صريحة اخيرة : احلى ما في الرجل رقبته ، ومشهد عضلاتها وعروقها وهي تنتفض وتتقلص وتسترخي وتتواتر مع انفعالاته تعطي صورة موجزة او خطا بيانيا لغليان الدم في عروقه او همومه . . انها جزء معبر كعينيه . . لماذا يئدها ؟ . .

ومن اطرف ما سمعت في تونس شتيمة ، امرأة تشتم جارتها وتقول « ينطيكي شامي » أي « يوقعك الله في حبائل زوج شامي » ، وعرفت انهم يضربون المثل بسوء معاملة الرجل الدمشقي لزوجته، وهذه المرأة التونسية لم تجد مصيبة أكبر تدعو بها عليها سوى أن يرزقها الله زوجاً من الشام . . ترى ما رأي الزوجات في دمشق ؟؟ . . .

Akhawia.net

لندن ٧/ ٩/ ٦٤

سلام على حقول البرتقال الحزين

لا شيء اجمل من لندن حينما تصفو سماؤها ، وتنبت فيها شمس ، ويتلصص فوق ابراجها قمر . . انها رائعة ، كابتسامة مفاجئة في وجه انسان متعب قلما تنفرج اساريره . . ككلمة حب مشبوبة على شفتي كاهن لا مبالاة .

وانا اعتبر الشمس فرداً هاماً من افراد اسرتي ، لذا غمرني شعور عائلي بانني في بيتي لما التقيت بها في ذلك الصباح ، واخترت ان اقضي سهرتي مساء امام التلفزيون كأي فرد يقطن لندن وله فيها اسرة وموقد . .

لكنني فقدت في الليلة نفسها ذلك الاحساس بالالفة ، وانا ارقب برنامجاً يدعى أفترديتر ـ أي (بعد العشاء) يقدمه « لورد بوثر » ، وكانت ضيفة البرنامج « الليدي غيتسكل » أرملة زعيم حزب العمال الأسبق .

كان اللورد يتحدث عن دور الشباب في النهوض ببلدهم ، ويطرح على الليدي غيتسكل سؤالا يتعلق بهذا الموضوع . وهنا نجد الليدي تشير الى اثر الدين في النهوض بالشعوب ، وتتخذ من (دولة) اسرائيل دليلاً على صدق كلامها ! ويتدخل اللورد (ليناقشها) ، فيلفت نظرها الى عنصر آخر يرجع اليه الفضل في (نهضة اسرائيل وقوتها) ، هذا العنصر هو ما اسماه (بالتجنيد الاجباري لقوى الشعب كافة) . . ويستمر النقاش بينهما ، وتستمر المباراة لاكتشاف (سر قوة اسرائيل !!) . . والنتيجة التي يخرج بها المستمع البريطاني هي قناعة تامة بان اسرائيل قوية ، مرتكزة على اسس دينية (تفسير يرضي اعماق الفرد البريطاني المحافظة التي تهتم كثيراً بتاريخ الجماعة وماضيها !) وعلى أسس من العمل والجد والتجنيد الاجباري . . اي على مبرر تاريخي لوجودها ، ومبرر انساني ! . .

وتمزقت وانا أرى الحقائق تمسخ امامي بهذا الاسلوب . . وسألت عن البرنامج فقيل لي انه يكتب بأكمله قبل اذاعته . . اذن فليس في الحوار اي ارتجال . . . ترى هل يؤمن اللورد حقاً بما كان يقول ؟ ام ان الدعاية الاسرائيلية استطاعت مسخ الحقائق الى هذا الحد ؟ . .

Akhawia.net

والواقع ان الدعاية الاسرائيلية كما لاحظت ترتكز على أسس علمية نفسية حديثة لمختلف الشعوب الاوروبية . . انهم يقدمونها لكل شعب اوروبي باسلوب معين يتفق مع نفسيته وظروفه وتاريخهم معه . . يسكبونها له في طبقه الشعبي كي يتناولها بتقبل . . . في المانيا مثلا لاحظت بعد نقاش واحد مع مجموعة من الشبان الالمان ان الدعاية الاسرائيلية استطاعت ان تربي لدى الجيل الالماني الجديد عقدة الشعور بالذنب امام اليهود وحولت هذا الشعور بالذنب نحو اسرائيل . . واستطاعت ان تتقاضى ثمناً لهذا الاحساس مجموعة من المساعدات المادية ، وكثيراً من العواطف الفردية الانسانية التي يحملها الالماني للاسرائيلي . . . الالماني في أعماقه ما زال يحتقر الاسرائيلي كفرد له أسلوب (حقير) في الحياة ، ولكنه تعلم ايضاً ان يكره احتقاره للاسرائيلي ويخجل منه ، بل ويدفع له ثمن احتقار اجداده له . . .

وفي ايطاليا يستغل اليهود وجود الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها الانسانية فيشرحون قضيتهم من زاوية دينية بحتة ويرتدون على وجوههم اكثر اقنعتهم ذلاً ومسكنة ليثيروا شفقة المتدينين والعالم .

وهنا في بريطانيا يضربون على الوتر الحساس في ذات البريطاني المحافظة التي تؤمن بقيمة العمل والجد . . .

ونحن . . .

ما زلنا نزهر كلاماً ولا نثمر . . .

نطلق سحبا ترعد ولا تمطر . . .

ونحن بعد ستة عشر عاماً من النكبة ، استطعنا اخيراً ان نتفق على محاولة الاتفاق على اتفاق لبحث اسلوب العمل !! . . ونحن ما زلنا نتشاجر ونتاجر بجرحنا ونساوم عليه حتى كدنا نحبه حب المتسول لعاهته !! . . .

« الحقيقة ولدت في المنفى » ، ونحن نزيد في نفيها ، ننفيها في كل لحظة بتصرفاتنا وجهلنا ومناوراتنا . .

وهم يبثون ألسنتهم في كل مكان ، فصيحة خبيثة تنطلق في كل دار بلغة أهله ، وعقلية أهله ، تعبر بمهارة وسلاسة عن اكبر اكذوبة في التاريخ وتنسج من الجريمة اسطورة يكاد العالم الغربي يعتنقها . . .

وهربت الى الشارع ، وكان البدر يضيء السماء ربما للمرة الاولى منذ اعوام في لندن . . واحسست بالحقد على اعماقي التي ما زالت امواج مد الذكريات وجزرها تتيقظ

Akhawia.net

فيها تحت ضوء القمر . . وهنا لم يخطر لهم استعمال القمر الا كسلم يتسلقونه ربما الى كوكب اخر . . من يرحل دون ان يتخدر يصبح تعيسا حقا . . وانا الآن عربية حزينة وهي ترى مدى جهل العالم بمقدساتها وقيمها ونبل عالمها وجراح امتها . . وترى مدى الظلم الذي تعاني منه قضاياها وقضية فلسطين بالذات . . اتمنى ان اقول شيئاً . . ان اصنع شيئاً . . كيف ؟؟ . . . واحسن بانني ضائعة ، حائرة ، من قال ان ضياع الفرد العربي مستورد ؟ . . . الفرد العربي الآن قلق وضائع ، ضياعه لم يستورد من اوبئة انعدام القيم في العالم الغربي بسبب الحرب والمدنية الآلية الحديثة . . ضياعه ناشيء عن حيرته ، عن اختلاط المفاهيم في ذاته ، عن تخبطه بين آلاف النظريات والتطبيقات الكسيحة لها ، عن قواه المبعثرة ، عن فقده للاحساس بالامن والاستقرار والطمأنينة والاستكانة تحت جناح خطة موحدة للعمل . . . ان حالة عدم الاستقرار والصراع وتشوش الحقائق واختلاطها هي التي تشتت الجهود وتبعثرها وتجعل جذور الفرد العربي رخوة في تربته ، فيحس بانه بركان تأكل نيرانه نفسها ، تلحق الخراب بأرضه عوضاً عن ان تجد من يخطط لها ويوجهها نحو ارض العدو .

الفرد العربي ضائع لأن سيوله لم تحول الى مجرى كبير موحد ، والنية والعزم لم يصبحا عملاً مثمراً . . . ضياع الفرد العربي حقيقة ما دامت قوانا مبعثرة ، ما دامت اصابع اليد الواحدة تتشاجر فيما بينها عوضاً عن ان تضرب . . .

وسألت عن اللورد بوثر . . احسست برغبة في الالتقاء به والنقاش معه حول هذا الموضوع . . فقيل لي انه كان بطل فضيحة اخلاقية كتبت عنها جريدة « الديلي ميرور » ودفعت مبلغ ٥٠ الف جنيه استرليني تعويضاً للورد الذي اقام الدعوى عليها . . لا ريب في انه الآن مشغول ببعثرة نقوده او بتعبئتها في اكياس ، ولن يكون لديه اي وقت لمقابلتي . . .

شيء عربي آخر اتعسني هنا . . .

حكاية سمعتهم يتندرون بها .

طالب عراقي في جيلفورد (تبعد ٤٥ ميلاً عن لندن) يدرس في كليتها ويعد شهادة الـ (جي سه ي) ، هذا الشاب انتحر في الاسبوع الماضي لان حبيبته تركته الى رجل آخر . . .

تمدد على قضبان القطار ومات تحت العجلات . . .

وتألمت وأنا اراهم يسخرون منه ويتندرون ، يضحكون من فكرة الحب ، من

Akhawia.net

وجود شيء في الحياة يمكن ان يموت الانسان من **أجله دون أن تكون له علاقة بالنقود** .

وتألمت من الطالب العربي اكثر مما تألمت عليه . .

لقد عبر تعبيراً رخيصاً خاطئاً عن عاطفة هي في نظري اثمن من كنوز الكومنولث البريطاني باكملها . . الحب ، آلهة العالم القديم العريق ، آلهة الشرق الثري بمشاعره وحنانه وروحانيته ، الحب ما زال في بلدي الهيكل الذي يتحدى جبروت اي انسان آلي مهما كان (فولتاجه) عالياً . .

ولكننا في الشرق نشوه روائعنا بسوء تعبيرنا عنها ، بارتجالنا وتسرعنا وعصبيتنا ، وبعدنا عن الموضوعية والمنطقية . .

اننا بذلك نفقد تقدير العالم الغربي لنا لانه يعجز عن فهمنا . . اننا نصرخ حينما ننطق بكلمة حق ، والعالم الغربي لا يستطيع ان يفهم لماذا نصرخ ونحتد ما دمنا ننطق بكلمة حق . . .

ليتنا ، في مؤتمر فلسطين القادم لا نمدد قضيتنا على القضبان لنثبت للعالم مدى حرارة صدقنا وانفعالنا . . .

ليتنا نتخلى عن اسلوب امرىء القيس والوقوف على الاطلال في قضايانا الشخصية والعامة . . . وسلام على حقول البرتقال الحزين . . . لا أملك لها الليلة الا السلام ، فأنا خرساء ، ومتعبة ، وعاجزة عن فقد وعيي .

Akhawia.net

لندن/ ١٤/ ٩/ ٦٤

ناقل الكفر كافر أحياناً

كلما ازداد اقتراب الانسان من الاشياء وانضمامه اليها ، كلما فقد القدرة على رؤيتها بوضوح ، حتى اذا ما التصق بها ، عجز عن رؤيتها لان اتحاده بها يفقده شروط الرؤية الصحيحة من موضوعية وتجرد وصفاء ذهن . . تماماً كما يعجز الانسان عن رؤية وجهه حينما يقترب من المرآة حتى يلتصق بها . . او عن رؤية عيوب من يحب . لذا فالرحيل ضروري باستمرار .

وربما كان ذلك أيضاً ما دفعني للاستماع الى حديث عدد من كبار ادباء الغرب وهم ينقدون العالم الادبي العربي ، والى الانصات بهدوء تام الى اتهاماتهم القاسية وملاحظاتهم الجارحة ، ونقل هذا الحديث .

فنحن هنا في بيروت وفي كل مكان من العالم العربي ـ اقصد بنحن ، الفئة التي تستعمل الحبر للكتابة لا لصبغ الاحذية ـ نُكوِّن مستعمرة اسفنجية واحدة . يعرف بعضنا بعضا ، ويتأثر بعضنا بالآخر ، خطايانا وافراحنا ومنازعاتنا وتفاهاتنا (وطواتمنا وتابواتنا) واحدة . . . لقد تربينا في التربة نفسها وهبت علينا العواصف نفسها والفروق الفردية فيما بيننا لم تغير من شروط الرؤية حولنا . . فنحن نشترك في مستشفى واحد كبير نسوره بغرورنا ونصر على تسمية (ما تبقى) من العالم حوله مستشفى ! وكلنا عاجز عن التحرر من الجاذبية البشرية والتاريخية لتفكيره وتبني إطلالة ـ جديدة كل الجدة وحيادية تماماً ـ على عالمنا . . نظرة من انفلت من مناخنا واستقل بتفكيره المجرد في كوكب آخر يرقبنا . .

البوصلة العقلية لكل منا قد تختلف عن البوصلة العقلية للآخر ، لكننا جميعاً نتحرك على خط عرض واحد ونخضع لمغناطيسية اجتماعية وتاريخية واحدة . . لذا فامراضنا المتشابهة صارت مألوفة لدينا ما دام لا طبيبا بيننا ولا سليما من مرض ، وبتنا نظنها وضعاً طبيعياً وأصلاً لا عَرَضاً ، كما قد يتساءل أعور من مدينة سكانها جميعاً بعين واحدة ، عن علة اول رجل مبصر يلتقي به ، ويشفق عليه مما اصاب عينه الثانية وجعلها مبصرة كالاولى !! . .

من هم ؟

الاسماء لا تهم . . ولنستمع مرة واحدة الى رأي انسان محايد دون أن نضربه

Akhawia.net

بالبيض والبندورة .

احد اولئك الكتاب الانكليز زار ذات يوم قطراً عربياً ، ولقي من الكرم (الاصيل) ما لقي . . دهش يوم مر به صديق وقال له : تعال اعرفك على الادباء في هذا البلد . .

سأله : أستطيع فهم ان تعرفني على الآثار في بلدك فنذهب الى المتحف ثم الى حطام المدن الغابرة التي لا تغير مكانها . او على منسوجات بلدك فنذهب الى السوق . . او على الطيور في مدينتك وانواعها فنذهب الى مخزن ما حيث نجدها في اقفاصها الخاصة معدة للزبائن . . اما الادباء ، فهل لهم سوق ام دكان ام اقفاص ؟ وهل ترتبونهم وتجمعونهم كأنهم اسماء في دليل هاتف ؟ . .

ـ لهم مقهى يقضون فيه ساعات النهار وبعضا من ساعات الليل . .

ـ ليس في بلاد العالم كله طبقة جديدة من نبلاء الفكر تدعى بالادباء وتستوطن حجرة مسورة تدعى بالمقهى . . الادباء عندنا يتحركون هنا وهناك ويتحدون بتواضع ببقية كريات الشعب الحمر ، يعيشون الحياة ولا يمثلونها ، لذا فهم اقدر على رسم مشكلاتهم بصدق . . ولا يبرزون جواز سفرهم الديبلوماسي الفكري حتى امام اشارات المرور اذا احمرت ! . .

ووجدتني اسأله : بماذا تفسر ظاهرة « المقهى » في جونا الادبي ؟ . .

قال : محاولة تقليد اعمى للاجواء الادبية التي تقرأون عنها وتسمعون بها . . محاولة خلق باريس جديدة في فترة اعوام العشرينات (التوينتيز) الخصبة حيث كانت علاقات الادباء ببعضهم واحتكاكاتهم وصلاتهم محركا اساسيا لابداعهم . . تماماً كما تقلدون كتاباتهم . . والحقيقة ان اولئك كانوا (يعيشون) . . كانت لكل منهم حياته الخاصة وهذه الحياة الخاصة هي التي تحتك بحياة الآخرين . أما ان يتخلى الاديب عن حياته الخاصة ، كانسان عادي مسؤول ، وينذر نفسه لمحاولة خلق ابداعه من احتكاك عقيم ، فانه في هذه الحالة لن ينتج شيئاً وهذا ما يخلق في بلادكم الاحتكار الفكري حيث لا تعطى (شهادة) لاي نتاج جديد ما دام صاحبه لم ينضم الى النقابة !! . . هنا ، قد يكون جاري الذي لم اسمع باسمه منكبا في هذه اللحظة بالذات يكتب سطور تحفة الموسم الادبية ! . . دون ان يعلن عن ذلك في المقهى النقابي المكرس . . ليكرسه .

وتحدث آخر وآخر . . .

وكنت انصت واخجل واشجع نفسي على مواجهة نفسي . .

وقالوا اشياء كثيرة ما زلت اذكر بعضها . . اتهمونا بما استطيع ان اطلق عليه اسم

Akhawia.net

« الحمل الادبي » . . في بلدنا يوظف الانسان نفسه كاتباً دون أن يكتب . . يصاب باعراض (الوحام الادبي) من نفش للشعر واهمال للمظهر واطالة للسوالف واحتقار للناس (العاديين) . . انه يصلح تماماً لتمثيل دور اديب على المسرح ، لكنه لا يعيش الدور لانه لا يملك المؤهل الوحيد له : الانتاج . . وفي (النقابة) ينال من الآخرين اعترافاً بجمهوريته الفكرية مقابل اعترافه لهم بذلك . . ويمضي هنا وهناك يوزع (شيكات فكرية) بلا رصيد . . ويذيع صيته دون ان يغطي الاوراق النقدية التي يطبعها بعملة صعبة او بسبائك أصالة ذهبية ! . . هذا الاحتيال الادبي لا وجود له في جوهم ، وليس عندهم اي (نابوليون رواية) عطاؤه الوحيد واترلو فاشلة ! . .

وماذا ايضا ؟ . .

قالوا ان هذه الحالة لا ترجع الى الغرور وحده او عدم الشعور بالمسؤولية او سوء فهم معنى كلمة ادب وانما ترجع ايضا الى صفة عامة في الشعوب العربية في هذه المرحلة هي الافتقار الى رحابة الافق النفسي ، ونبل الحوار المثقف وتقاليده الاصيلة من احترام متبادل وهدوء وعدم تراشق بالكلام او الرصاص .

وماذا ايضا ؟ . .

اتهموا ثقافة الاديب العربي فقالوا انها ناقصة . . نسبة قليلة من الكتاب تتقن لغة اجنبية تخولها متابعة ما يجري في العالم . . والترجمات التي تطرح في السوق لا تنقل خير ما في الغرب من نتاج . . اكثرها سريع وسطحي لكتب تلقى رواجاً موقتاً وزبداً عابراً . . وادعوا ان احداً من الكتاب العرب لم يقدم حتى الآن ـ الا فيما ندر ـ على ترجمة الذين يشكلون التيارات الحقيقية الخفية ، للادب الغربي الحديث ، بسبب صعوبة هذه الاعمال وعمقها واستحالة طرحها في عجالات . . سألوني ماذا يعرف قارئنا العربي عن « أهم » الادباء البريطانيين المعاصرين . . . قلت لهم اننا ترجمنا لورانس داريل وكولن ويلسون . قالوا ربما كانت ترجمة لورانس داريل من الاعمال الجادة القليلة في ادبنا العربي . . اما كولن ويلسون فشهرته في عالمنا العربي اكبر منها في بلاده . . وهو لا يمثل هنا شيئاً كثيراً .

وماذا ايضاً ؟ . .

اتهمونا بالافتقار الى حركة نقدية سليمة تواكب براعم النهضة الحديثة . . ان مهمة الناقد ليست في ان يطلق الاحكام بلهجة رئيس محكمة تفتيش وانما هي في اضاءة درب الكاتب التي يسير فيها دون ان يعي ، وتوجيهه وفهمه له كما لو كان توأم إبداعه الواعي

Akhawia.net

وبالتالي القاء النور على سبيله ودعمه لتحقيق غايته .

وماذا ايضاً ؟ . .

قالوا اشياء اخرى كثيرة . . ربما تمكنوا من وصف اعراض الداء لكنهم عجزوا عن اكتشاف اسباب العلة . .فحيادهم الذي أهلهم لوصف الحالة هو نفسه الذي يحول دونهم ودون الاندماج بالمأساة وتحديد اسبابها .

انا اعتقد ان انعدام الحرية الفكرية ، او انحرافها ـ وهو اخطر من انعدامها ـ او ادعاء وجودها ـ وهذا العن ـ ، او إقصارها على فئة دون اخرى تتبدل وفقاً للترمومتر السياسي ، انعدام الحرية بمعناها الحقيقي هو السبب الاول لامراضنا الفكرية جميعاً .

اديبنا مصاب (بالحمل الفكري) لانه يخشى (الوضع) !! انه يعاني مجموعة من الضغوط الاجتماعية والسياسية والارهابية التي تشله بل وتقوده احيانا الى فترة (وأدٍ ادبي) يدفن فيها كلمته الصادقة لانه ليس على استعداد لان يموت قديساً او شهيداً ، وكل ما يريده هو ان يقول بصدق ما لديه على ان يظل على قيد الحياة معنوياً ومادياً .وككل فعالية لا يسمح لها بان تمارس بشكلها الصحيح ، تنحرف الميول الادبية وتستحيل استعراضية عقيمة . . وربما كان في اجتماع الادباء في مقر او نقابة محاولة لا واعية لتوكيد وجودهم كفئة لها حقوقها ، وربما كان في انفلاتاتهم البوهيمية احتجاج طفل لم يسمح له بممارسة حرية الكلام فانطلق يحطم الاواني العتيقة حوله دون ان يجرؤ على النطق بما يريد او دون ان يقدر لو جرؤ . . . هذا ما لم أحب ايضاحه لزملاء الجلسة . . ولم ارغب ايضا في ان اقول لهم ان الجنس محرك اساسي في حياة الفرد العربي لكن معالجة اية قضية جنسية في الادب امر يثير الرعب والقلاقل مهما كان مستوى المعالجة رفيعاً وخالياً من اي ابتذال او اثارة سطحية . . ولم اقل لهم ان مشاكل الجنس في بلدي ربما كانت من أهم اسباب الاضطرابات السياسية التي نعاني منها ما نعاني . .

وماذا ايضا ؟ . .

كل ما استطيع ان اقوله وانا اغادر المسرح سريعا قبل ان ينهمر عليّ البيض والبندورة ان ناقل الكفر ليس بكافر إلا احياناً . . ولكن ، هل فيما قيل تجديف اكثر مما فيه تعرية ؟؟ . . .

Akhawia.net

باريس ٢١/ ٩/ ٦٤

نريد حرية من صنع محلي

انتحرَتْ . وجدوها بعد خمسة عشر يوماً من موتها وقد بدأت تتفسخ ، ولو لم يكن يومها موعد دفع اجرة غرفتها الحقيرة لما فكر أحد بالسؤ ال عنها او تكبد عناء تحطيم القفل ليرى ما حل بابنة العشرين خريفا .

وارسلوا الى اسرتها نداء بالراديو أسمع العشرات منه كل يوم بعد الظهر في إذاعة لندن (بي بي سي وان) بعد برنامج (جيمي يونغ) فأحس بانني أعيش في مسلخ كبير . ربما تتهرب الاسر دوما من تكبد مصاريف نقل جثث اولادها ودفنها ، ومن قد يخلف تركة فانه لا يموت وحيدا ! . . .

واخرى . . .

كانت تستقل المترو ساعة الزحام (راش اور) بينما الناس في طريقهم من والى اعمالهم . كانت حاملا ، ربما في شهرها العاشر او اكثر ! . . لم يتخل لها احد عن مقعده طبعا . فجأة امتقع وجهها وتصبب منه عرق بارد ، ولاحظت انها تكتم المأ مريراً . .

بعد ان تجاوز المترو (الماربل آرش) و (اكسفورد ستريت) تحول انينها الى توجع وبكاء ، وهي تمسك ببطنها . لقد فاجأتها اوجاع المخاض !! . .

شيء لا يصدق ! جارها الجالس على المقعد الذي تستند اليه لم يرفع عينيه عن جريدته . لم يلتفت اليها انسان . ظلت عيون الرجال والنساء تنزلق على جدار الامعاء المظلمة لنفق المترو مترقبة ظهور اسماء المحطات كي لا يفوت احدهم الهبوط فيتأخر ساعة وربما يفقد عمله ويموت جوعا . ظل الصاعدون والهابطون يصطدمون بها في غمرة تدافعهم . وظلت فتاة تقبل (شابها) بنهم عند النافذة دون ان يلتفتا او يلتفت اليهما ايضا احد . تفكك عجيب في المجموعة ، كل في قفصه الزجاجي العازل ، غاب جديد من المدنية . . . كنت وحدي البدائية الغنية بآلهتها واوثانها . . وكنت وحدي التي بدت غبية ومضحكة حينما تقدمت من السيدة الحامل وسألتها ان كانت بحاجة الى المساعدة . فاستغربت ، وفي غمرة اوجاعها لوت بوجهها عني قرفا لتدخلي فيما لا يعنيني !!! . . .

وانا الآن في باريس . .

Akhawia.net

واليوم من اواخر ايام الاجازة الصيفية التي يرحل خلالها اهل باريس جميعاً الى الريف .

المدينة فارغة كمدن الاساطير العربية التي تحجر سكانها ، واستحالت ابنيتها نحاسية مسحورة . . او رحل رجالها الى حرب لن يعودوا منها ، اذ ليس في المقاهي والمطاعم والشوارع الا نساء عيونهن مزيج من خيبة وفجيعة وجوع . . نساء من جميع الحجوم والالوان والاعمار . . مكدسات على الارصفة كالبضائع الكاسدة التي يجري التخلص منها في رخصة . . . وكلهن بانتظار سائح او عربي لا يعرف تسعيرتهن في بلادهن .

وكلمة واحدة تجمع بين هذه المشاهد جميعاً اسمها : الرخص . . هذا الرخص الذي يصعق له اي شرقي تربّى على ان يموت جوعا ولا يرضى لامه بان تعمل حتى في مهنة شريفة مثل سائقة تاكسي مثلا . .

فعدد النساء هنا يفوق عدد الرجال بكثير ، والرجل صار من القطع النادر بعد ان لقي عدد كبير مصرعه في الحروب العالمية المتوالية . . . وربما كان قانون العرض والطلب الاقتصادي ينطبق على كل شيء حتى على السلع البشرية والعواطف الانسانية .

قالت عاملة تجرب لي ثوبا في احد المخازن : المرأة عندكم لا تعرف اية نعمة تعيش فيها . .

وتذكرت عشرات من الاجنبيات اللواتي يتسابقن الى الزواج من رجال شرقيين . . منهن من تركل مناظر سويسرا ورقي حياتها وتتبع اسمرها الى اعتم زاوية في حماه واكثرها تزمتا . . ماذا يأسرها سوى حلمها بان تعامل « كأنثى » . . (وان كانت في اغلب الاحيان تعود من جحيمنا الى جحيمها فاشلة) . . فالرجل الشرقي يبالغ في (حرصه) على المرأة حتى ليسجنها .

وانا أتحرك هنا ، ارى في الدعوة الى تقليد مظاهر حرية المرأة الغربية ، امرا غير منطقي . .

فحياة المرأة الغربية هنا نتيجة لتطور تاريخي واجتماعي وصناعي له جذور في حياة امتها من حروب وتصنيع . . وهكذا فالحياة التي تمارسها تتلاءم الى حد ما وبقية زوايا الحياة النفسية لما حولها . .ونحن هنا لا نستطيع ان نقتطع جزءا من المشهد ونلصقه في حياتنا ولكننا نستطيع ان نستفيد من تجربتها الفاشلة في الحرية ومن تجربتنا الفاشلة في كبت الحرية . .

Akhawia.net

وحرية الغربية ضمن شروطها لا تستحق الاستيراد . . ومن المستحيل عزلها عن هذه الشروط وممارستها . . وهكذا لم يبق امامنا الا السعي وراء حرية من « صنع محلي » ندفع ثمنها ، ونصل اليها كنتيجة لتطور جريء جذوره في قيمنا وعالمنا بعد تطعيمها بما نحترمه من عالمهم . .

ان ثمن حبة الدراق في لندن او عنقود العنب في باريس يفوق ثمن امرأة !! . . . يا للرخاء . .

وذات أزل دفع آدم الاول لحواء الاولى خلوده ثمناً لحبها . .

فالى اين تسير حواء ؟ . . ام ان احفاد آدم هنا ينتقمون ، والمرأة ترقص في وليمة ذبحها ؟؟ . . .

Akhawia.net

لندن ٢٥/ ١/ ٦٥

تعليب الحقيقة للشعوب اللاهثة

« طقس جميل ، أليس كذلك ؟ »

واجتاز صوتي اكداس الثياب التي تكومت تحتها ليجيب : « أجل ، طقس جميل » .

وكان المطر ما يزال يهطل منذ الليلة الماضية ، وحبيبات الجليد ما تزال متجمدة على نوافذ القطار ، وقبل لحظات اعلن المذيع ان درجة الحرارة هي تحت الصفر بعدد لا بأس به من الدرجات .

« طقس جميل » هي عبارة التحية التقليدية ، التي يبدأ بها الانكليزي شخصاً آخر في لحظات البرد النادرة ، لأنها وحدها تفك طلسم الصمت الذي يغلف كل فرد بحكم انعزاله التام عن اي فرد آخر ، ويتبعها حديث طويل ومجاني .

لكن الغريب مهما طالت اقامته لا يمكن له ان يألفها ، خصوصا اذا كان قادما من بلاد شمسها الحادة وحدها تطهو طعامه !

لذا غمرتني فرحة شريرة ، وأنا ارى اهتمام الناس بانباء مرض تشرشل . فقد تغيرت (اللازمة) التقليدية لتبادل الحديث في القطار او المطعم من مناقشة احوال الطقس (الذي لا يمكن ان يكون صقيعة موضع نقاش) الى سرد آخر انباء مرض تشرشل ، ومتابعة النشرات الطبية المتلاحقة حول ضغطه ونبضه وعدد دقات قلبه ، وشراء (الملحقات) التي تصدرها دور الصحف حول هذا الموضوع .

وقد اعجبت باهتمام الانكليز البالغ بصحة تشرشل ، وجزعهم الصادق على حياته ، وتأثرهم العميق بمرضه الى حد تبديلهم ـ بصورة عفوية ـ لأحد (تقاليدهم) في تبادل الحوار .

وكان من مظاهر اهتمامهم هذا ، حزن بالغ ، وتجمهر امام باب داره ساعات في الصقيع بانتظار كلمات طبيبه ، وقراءاتهم للنشرات الطبية عن صحته حتى اثناء اجتيازهم للشارع او قفزهم الى (الباص) ، ويخالط ذلك شيء من الهستيريا العاطفية التي لا تتفق مع الفكرة الشائعة عن برود الشعب الانكليزي و (عقلانية) مشاعره . . كانت هذه

Akhawia.net

المظاهر الهستيرية تعبر عن شيء يتجاوز الخوف الطبيعي على حياة احد ابطالهم وعظماء تاريخهم . .

احياناً تغمرنا تعاسة هي أكبر من ان نعبر عنها او نحيط بابعادها ، او نفسر أغوارها ومداها لمن حولنا ، ربما لعجزهم عن فهمنا او لعجزنا عن تبريرها ، ثم يتصادف ان يقع مصاب ما لانسان نحبه ، ودون وعي منا نجد لتعاستنا منفذاً له ما يبرره اجتماعياً ، ونمارس حزننا الخاص تحت ستار ذلك المصاب ، وحشياً هستيرياً .

فهل في حزنهم هذا تعبير عن شيء أبعد غوراً ؟ عن اضطراب داخلي يعاني منه الجيل الانكليزي الحالي ؟ . . . هل هي بقايا (العاطفية) في نفوس افراده ، والتي رغم انتهاء اساطيرها من حب وحنان وتعاطف ، ومصرعها بين مسننات عصر الآلة ، ما تزال تنتفض من تارة الى اخرى كدجاجة ذبحت للتو ، ولما تكف عن الصياح بعد ؟ . .

ان المراقب لبرامج تلفزيون لندن يلاحظ ظاهرة هامة صارت اشبه بعامل مشترك مسيطر على البرامج جميعاً . . انها السخرية . . .

المطرب يسخر ، المذيع يسخر ، المعلق السياسي ، الممثل ، كلهم يسخر من سياسييهم وزعمائهم ورجال اعمالهم ونجوم مجتمعهم . . براجمهم كلها قائمة على سخرية سوداوية فيها مرارة شرسة تذكر بأجواء مسرحيات بيكيت ، يضحك الناس لها بحقد الاطفال الشريرين وشماتتهم ، لا بروح مرح فكه سطحي . .

هذه السخرية في نظري تحمل خيبة لا حد لها من حضارتهم الآلية الغربية وانتقاماً عفوياً منها بالضحك على اعمدتها والوجوه التي تمثلها . . انها اسلوبهم في الاحتجاج على تآمر الالية عليهم وتشويهها المستمر المتسارع لانسانيتهم ، ربما كانت الصرخة الاخيرة قبل ان يستسلموا نهائيا ، ويصبحوا امتدادات لحمية وعظمية لغابة آلاتهم الدقيقة ، المعنة في العظمة العلمية والنظرية الباردة .

اغنية البيتلز مثلا التي تقول : « لقد كان يوماً شاقاً ، وكانت ليلة شاقة ، وانا أعمل كالكلب » اليست روح المرارة والتذمر المستسلم التي تحملها ، هي التي دعت الشعب الانكليزي لاختيارها كأحب اغنية الى نفسه ؟ . . .

ربما كان حزن الشعب الانكليزي على تشرشل وجزعهم على حياته امراً صادقاً ومباشراً ليس بصمام امان ولا بانتحال لمبرر . . . وهذا معناه ان الشعب حساس جداً ، وعاطفيته سريعة الاثارة ، وموت انسان بالنسبة اليه كارثة ، لمجرد انه انسان يموت بعد ان اعطى كل ما لديه لقومه ووطنه . . .

Akhawia.net

وتذكرت الشعب العربي في عُمان وتذكرت مئات الناس الذين يموتون في كل يوم بصمت بعد ان يمنحوا كل ما لديهم ليعيش من يظل حيا من قومهم في ظل الكرامة . . تذكرت الاف الناس يموتون في كل يوم بسبب شيء اسمه (الاستعمار) ، ترى لو عرف الشعب الانكليزي بما يجري في عمان ، وعلى حقيقته ، اي جناز علني كان يقيم ؟ . . ام ان قلبه كجزيرته ، مغلق على ما بداخله ، ولا يفجعه الموت الا اذا تم على ارضه ؟ هل يدري بما يحدث ؟ ام ان صوت مآسينا ـ كالعادة ـ ضعيف ومشتت تتآمر عليه شتى القوى لتزوير تاريخه ؟

وأمام واجهة احدى المكتبات عرفت معنى تزوير وتضليل الرأي العام وتشويه الحقائق . . .

انها واحدة من المكتبات القريبة من المتحف البريطاني . . وفي واجهتها الفخمة تعرض مجموعة الكتب الاسرائيلية فقط . كلها كتب تبشيرية تضليلية تحت ستار الادب او التاريخ او الدين . . وفي كل يوم يمر امامها مئات العرب دون ان يملكوا شيئاً لقضاياهم التي تزيف باستمرار ، وفي كل يوم يشتري هذه الكتب عشرات الاجانب فيحملوا الافكار الخاطئة عن حقيقة قضايانا . . وتذكرت اسماعيل شموط الذي لم يجد واجهة تعرض لوحاته الفنية عن النكبة (حتى الآن) .

ومن هنا يصبح التهاون في تبني تخطيط جدي للدعاية لقضايانا وشرحها امراً خطيراً لم يعد يحتمل التأجيل .

فالشعب البريطاني كالشعوب الغربية كلها . . لاهث دائماً . . لاهث وراءالقطار ، لاهث وراء ساعة المكتب ، يتناول وجباته الخفيفة اثناء ركضه في الزحام ، ودماغه صار كمعدته ، لا يهضم الا المعلبات ، لم يعد لديه وقت يبحث فيه عن الحقيقة ، او يمارس احاسيسه بابعادها كلها . . فالقلب الذي ينبت الحب فيه بمفهومه الانساني الكبير لا يبخل به على اي انسان في اي مكان .

***

وفي قلب لندن مهزلة يومية امام مخزن يمر الناس به كل يوم ويحملون له كل تبجيل . انه مخزن شكسبير . كل ما فيه يتعلق باديبهم العظيم شكسبير بطريقة ما . . صحون عليها صوره . . صور داره . . عباراته الرائعة محفورة على الخشب . . اسطوانات سجلت عليها مسرحياته . .

انهم يجلون شكسبير دون ان يدروا انهم في اتجاه حياتهم الحالي وفي مواقفهم من

Akhawia.net

الآخرين يخالفون اهم رسالة اراد شكسبير ان ينقلها ..

اراد ان يقول ان المؤسسات ضرورية لبقاء المجتمع على ان يدخل فيها عنصر انساني هو المحبة ليخفف من آلية اسلوبها في العمل وما ينجم عن هذا الاسلوب من مضار تهدد بعض الافراد الابرياء . . المحبة التي « ليست محبة اذا كانت المصالح دافعا لها » . . المحبة التي تميز مجتمع الانسان عن اي مجتمع حيواني مهما بلغ من التنظيم الغريزي (كالنحل)

ان حبهم لشكسبير كخوفهم على تشرشل . . ليس لديهم الوقت الكافي لفهم مدلوله او ممارسته بمعناه الاصيل حيث يصبح لمصرع انسان مكافح في أي مكان من العالم وقع مشابه لمصرع رجلهم الكبير .

* * *

حادثة صغيرة تلخص ما يجري كله . . وهي ليست نكتة . انها مأساة الانسان الحديث . أخي الذي استعار دراجتي النارية وسقط عنها ، روى لي انه خلال إقامته في المستشفى كانت الممرضة توقظه احياناً من النوم كي تعطيه (حبة) المنوم المعتادة !.

Akhawia.net

الطائرة ٢٧/ ١٢/ ٦٥

شركة : كيف ؟ لماذا ؟ ومتى ؟

ارحل ارحل ارحل . . .

واذا عدت ،

فلأرحل من جديد ! . . .

ارحل ، ربما لأثبت ان لا رحيل الا لو رحلت عن ذاتي . . ولكنني في كل رحلة أمعن ابحاراً نحو حقيقتي ! . . . أرحل . . ربما بحثا عن المجهول ، والمدن الغارقة في غلالات المسافات والتاريخ . . وربما لأن كل رحيل يقود الى الوطن ما دام الوطن يسكننا . . كل الطائرات تهبط بي في أرض الوطن . .

أرحل . . فلم يعد الرحيل تعذيبا . . ولم يغد الطرف الآخر من العالم (المرتكز على أحد قرني الثور الذي يحمل الكرة الارضية) ببعيد المنال . .

ولم تعد الافراح والليالي الملاح تقام للعائد من دمشق الى بيروت على ظهر ناقته (عابرة القارات) . .

وبساط الريح لم يعد اسطورة ، وخاتم علاء الدين ، يملكه كل من يحمل تذكرة سفر ، وجفنين يغمضهما ساعات ، ثم يفتحهما ليجد نفسه في المدينة التي أمر جني البطاقة بحمله اليها . .

ومع ذلك . .

فقد كان للرحيل فيما مضى سحر خاص . .

سحر المحطات . .

الوقوف في المحطات ، والاستمتاع بتنوع المشاهد الطبيعية والبشرية ، وتبدلها من مكان الى آخر . .

وهكذا كان في الرحيل عنصر انساني فقدناه في يومنا هذا . .

فاجمل ما في الرحيل هو ان يكون غاية بقدر ما هو وسيلة الى مدينة معينة . .

والذ ما فيه ان يستمتع الانسان بفترة الانتقال نفسها ، قدر استمتاعه بلحظة الوصول . . .

Akhawia.net

ان تغمض عينيك في بيروت ، ثم تفتحهما في لندن يعطيك احساس من خُدِّرَ في بيروت ، ثم دُحْرِجَ على خريطة فارغة من المدن والاصوات ، ثم استيقَظَ بسطل ماء بارد في مطار لندن لحظةَ هبوطه من الطائرة !! . . .

اما أن لا تغمض عينيك في بيروت ، وان تتركهما تستمتعان بمعالم الطريق ، وتجوسان في المدن المختلفة طوال الدرب دون ان تعاني مشاق الدابة وغيلان الطريق وقطاع الطرق وسيوف حراس المدن ، فتلك هي متعة الرحيل . .

وذلك ما اكتشفته هذه المرة ، ودون ان اعاني بطء السيارة التي يحرص البعض على عبور القارات بها حرصا على متعة الدرب والتجوال . .

هذه المرة ، لم أغمض عيني في بيروت ، ثم افتحهما بعد ان ينسكب فوق رأسي دلو ماء بارد متدفق من سماء لندن في مطارها . .

هذه المرة حسدت الذين استعدوا لمحطات الطريق سلفا ، فكنت اخلفهم في كل عاصمة حلوة تهبط الطائرة فيها ، واتابع رحلتي مع ضيوفها الجدد . .

بيروت . . أثينا . . زيوريخ . . امستردام . . لندن . . باريس . .

لماذا بيروت ، لندن ؟ . . بيروت ، باريس ؟

المضيفة الحلوة تعاجل رجل الاعمال الجالس الى جانبي بابتسامة ساحرة ، وغمزة الى النور الاحمر . . وكبقية الرجال ، وكما يحدث في أمكنة اخرى ـ غير الطائرة ـ استسلم للابتسامة ، ولف حول وسطه القيد راضيا . . وتصادف ان القيد هذه المرة لم يكن فخاً زوجياً ، وانما كان قيد نجاة . .

اذن فالطائرة تهبط . . وقبل ان اجد في الوقت متسعا للبحث عن ثغرة في الطائرة اقفز منها ضيقاً كعادتي !! . .

أثينا . .

لم يستقبلني سطل المياه المعهود في لندن . .

ما زال الدفء ، الدفء في الاصوات ، في الجو ، في سمرة الوجوه ، في عتمة الشعر . . وما زالت قريبة من عالمي . . ففي صالة (الترانزيت) حقائب تحمل ذوق بلدي . . والباعة يتحاورون بصوت مرتفع ويتجادلون كما في بلدي . . وبائعة التبغ تريد ان تعرف كل شيء عني بفضول سيدات مجتمع بلدي . . انها تحاول ان تسألني عن اسمي ومهنتي والى اين أنا ذاهبة ولماذا وكم عمري وهل أحب خطيبي وهل احب البفتيك مشوية كثيراً ام (متوسطة الشوي) ، وكم ثمن جواربي . . و . . و . . في وقت واحد ، وتريد

Akhawia.net

ان تعرف الجواب في وقت واحد ، وهذا كله بينما هي تبيعني لفافة من التبغ احملها هدية معي . . .

وريثما تناولت منها علبة التبغ عرفت منها انهم يرتدون الخاتم في اليد اليمنى دلالة على الزواج لا على الخطبة . . وخفت ان تفوتني الطائرة فيما لو وقفت استمع اليها تشرح لي سبب هذا التقليد . .

وأنا اعود الى الطائرة ، وشمس البحر المتوسط في اليونان ما زالت تدفئني كنت ارقب من بعيد اولئك الذين لم يفتهم ان اجمل ما في الرحيل محطاته . . وان المدينة التي سمعت حوار الانسان مع الالهة للمرة الاولى تستحق ان يقف فيها الراحل ولو كمحطة ، وتستحق ان ينسى رحيله الميكانيكي لينصت فيها الى همسات افلاطون وذكريات الحضارة الكبيرة . .

وعادت الطائرة الى مطارها الحقيقي الازرق الشاسع ، وعاد كرش رجل الاعمال الى الاستقرار بسلام في المقعد المجاور لمقعدي ، وعادت صلعته تضيء بشدة كلما مرت المضيفة غير الحسناء بنا . .

وعاودتني رغبتي في القفز من الطائرة من النافذة مثلا ! . . لماذا يحكمون اغلاق النوافذ هكذا ؟ . . مغافلة المضيفة أمر مستحيل . . لا اعتقد انني استطيع اقناعها بتركي اتنزه على جناح الطائرة الذي يغريني . . . أحسه جسراً فضياً مغروساً في زرقة الفضاء ، وطرفه الآخر اللامرئي يلتصق بالشاطىء الآخر للمجهول . . أريد أن أذهب الى الشاطىء الآخر . .

وجه المضيفة أمامي . . هل كنت أفكر بصوت مرتفع ؟ انها تعطيني مظروفاً مغلقاً . . . وتوزع للركاب جميعاً مثله . . لذيذة هي فكرة اغلاق المظروف . . . يحس كل راكب ان محتوياته تخصه وحده . . مجرد فتحه متعة . . احلى ما في الرسائل انها تصل مغلقة !

ومع ذلك ، لم اسمح لاغراء المظروف بإيقافي عن رحلتي المعتزمة فوق الجناح . .

وانا أتأمل الجناح ، وجدتني اقرأ ما كتب عليه بصوت مرتفع ، وأردده بلا وعي :

ك . ل . م . . . ك . ل . م . .

وأردد الاحرف شبه ذاهلة .

ك . ل . م . ثلاثة أحرف تلخص كل شيء . . فقد رأيت فيها :

ك : كيف ؟

Akhawia.net

ل : لماذا ؟

م : متى ؟

كيف ، لماذا ؟ متى ؟ . .

كيف ، لماذا ، ومتى ، تلخص حكاية الرحلة الكبرى ، العمر . .

« كيف ، لماذا ، متى » ثلاث ساحرات حملن المعاول وانهلن بها على صفحة ذهني الغائمة يسألن بالحاح . . ك . ل . م . . .

كيف ؟ لماذا ؟ متى ؟ . .

تصرخ في وجهي لتنبش الف كهف والف مغارة . . لتعري للشمس ملايين الدهاليز لتفتح الاف الابواب المغلقة المرصوفة على جوانبها . .

كرش رجل الاعمال المستقر الى جانبي ،

ترى هل يقرأ الحروف الثلاثة على كيس الملح بينما هو ينثره على طعامه ؟ .

وان قرأها ، فأية رموز تحمل ك . ل . م اليه ؟

ربما : كم ، لوازم ، معمل .

وللفتاة الحالمة هناك : كرم ، ليال ، موسيقى .

ولاخيها الصبي الشقي : كنز ، لعب ، مارد .

وكل ما في الوجود من مدن واحداث واشخاص ، هم كهذه الحروف الثلاثة . .

كل يراها من زاويته . . كل يتحسسها وفقا للوتر الذي ترنه في اعماقه . .

واللغة المشتركة بين انسانين ، حينما تعني الرموز لهما شيئاً واحداً ، هي اتحادهما الحقيقي . . وهي التي تجعل من رابطتهما انتصاراً انسانياً على الغربة . . وبها يكتشفان الابجدية التي قد تحمل أجوبة « كيف ؟ لماذا ؟ متى ؟ » . . وهي التي تجعل من رحيل كل منهما مزيداً من الاقتراب نحو الآخر ، ونفاذاً في وجوده . .

وتنتصر رائحة الطعام المتصاعدة من الصينية الشهية التي تركتها المضيفة امامي ، وانقلب بسرعة من حيوان ناطق الى حيوان قاضم ، واستغني نهائيا عن فلسفة (أنا أفكر فأنا موجود) حينما الحظ نظرات كرش رجل الاعمال (العدوانية) الى اطباقي المليئة . . يقولون : « الطريق الى قلب الرجل معدته » ، واقول « الطريق الى ان ينسى الرجل قلبه ، هو معدته » .

ثم ، امستردام . .

ودلو ماء بارد ينسكب فوق رأسي لحظة مغادرة الطائرة . .

Akhawia.net

ثم زهرة التوليب ، فاغفر لدلو الماء البارد . .

امستردام . .

كل ما في المطار يغري باختراق اسوار المدينة . .

كل ما في قاعة الترانزيت من معروضات يكشف لعيني قطاعات كبيرة مختلفة من زوايا المدينة القابعة هناك . .

واجهة الزهور ، زهور التوليب الرائعة . . ارى خلفها حقولا شاسعة من الازهار التي تتحدى البرد ، وربما تستدفىء بمصادفات الشمس من خلف (نظاراتها) الزجاجية التي تزرع تحتها . .

واجهة المجوهرات ، اي ذوق رفيع . . اي دقة . . وارى صفا من المخازن المضيئة هناك خلف اسوار المدينة ، وارى الاناقة والذوق والرشاقة تتدفق على الارصفة وفي الواجهات ، ومن الباصات . .

وانكفأت في غرفة الترانزيت أتمنى ان تسرع الطائرة بالرحيل قبل ان ابدل رأيي وأفقد مقاومتي امام اغراء المدينة الساحرة التي لا ريب في انها تقبع هناك . .

لماذا لا أبقى ؟ . . ارحل هكذا مع دواليب الطائرة ؟ . . من اجل دلو الماء في المطار ، هناك في لندن ؟ . .

وأكاد أبقى . . ثم ارى وجه اخي في مطار لندن ينعم وحده (بدلو الماء) المتدفق من السماء ، وأراه يعود بنظراته من وجوه ركاب الطائرة خائبا ، لانه لم يجد وجهي . .

ولكن ، امستردام . .

اي انتقال حلو . .

فالناس هنا يتحدثون همساً . . وبائعة الدمى التي وقفت امامها تعطيني بقية النقود دون ان تنظر الى وجهي . وربما لم تطرح حتى على زوجها الاسئلة التي طرحتها البائعة الاخرى علي في أثينا . . بل ربما لم تعرف اسم زوجها الا حينما ناداه الكاهن به ساعة (تكليلهما) . .

مدينة اوروبية بمعاني الكلمة كلها . . أحلى ما فيها ان يشاهدها الانسان بعد مدينة اقرب الى الشرق ، كأثينا مثلا . .

فيشتم (بردها) ، بعد دفء مدينة (المتوسط) ، ويستريح الى (برود) أهلها ، بعد (فضول) اهل المتوسط . . واقدم لنفسي وعداً رسمياً بالبقاء في امستردام اثناء العودة ، واشكر شركة « كيف ، ولماذا ، ومتى » لانها ستعاود الهبوط هنا حرصا على عدم

Akhawia.net

ندم الزبائن ! ثم تمعن (نفسي) في الحاحها بالبقاء في امستردام ، ولا ترضى بمرافقتي الى الطائرة الا بعد ان قدمت لها وعداً بالاقلاع عن الرحيل (التعسفي) ، وبالتمتع بتاريخ وحضارة المحطات الباقية . . زيوريخ ، وباريس ، وامستردام . .

الطائرة من جديد . .

وكرش رجل الاعمال من جديد الى جانبي وقد ازداد انتفاخا ، وهو نائم . وربما كان لديه ما يحيله الة تغمض عينيها في مكتبها ببيروت ثم تتدحرج على الخريطة لتفتحها في مكتبها بلندن مثلا . .

ولكن أنا ، لماذا ؟ . .

لماذا جرفني العصر هذه المرة ، ونسيت ان احلى ما في الرحيل هو الرحلة نفسها ؟ .

ثم . .

دلو المياه فوق رأسي في مطار لندن .

والاسفنجة المبتلة التي عرفت فيها فيما بعد وجه أخي ! . .

Akhawia.net

لندن ٢٣/ ١/ ٦٧

الذين يطلبون الدخول الى السجن

وأخيرا . . الطائرة . .

والرحيل ، الامنية الوحيدة التي لا يستهلكها مجرد تحقيقها . .

دقائق . .

وتعلو الطائرة ، وبيروت في القاع ، وقد زرعت تحت جلدها عامين من عمري . . . ورغم حزام المقعد الذي يشدني الى الطائرة ، احسني هناك ، اركض بسرعة في شوارعها المشمسة . ادق الابواب كلها . اودع الوجوه المطلة من النوافذ ببقايا نعاس مدهوش .وجوه زملاء الصف في الجامعة الاميركية ؛ سيفيم . سيرسا . ليلى . نواف . تحسين . فيكتور . عماد . الوجوه التي تتهامس في المقاهي . رمال الشواطىء . دروب الجبل . . . وبين اسناني الوك كلمة نصفها شبه وداع ونصفها زجاج مسحوق .

دقائق .

ويسقط على بيروت ستار ازرق شفاف ، ويبتلعها خط الافق ، وانا في الطائرة المبحرة نحو المجهول ، مشدودة الى مقعدي . .

وفي زوريخ ، كان الثلج في انتظاري .

جسده الابيض الكثيف يجثم فوق جسد المدينة : ارملة الفرح البيضاء ، ويغلق الدرب اليها . .

وهكذا لم اشعر بالحسرة التي تغمرني كلما مررت (ترانزيت) بمطار مدينة ما ، دون ان تتاح لي الفرصة لاكتشافها . . أكبر من حبي للمدن المجهولة كراهيتي للثلج والصقيع . .

لذا فضلت الانتظار في الطائرة الدافئة . .

خلعت جسدي على مقعدها بعد ان اغمضت عيني ، وبدأت احلم بافريقيا ، بغابات حارة تمتد اشجارها الضخمة جسورا الى السماء المشمسة ، وخليج تتفجر منه اصوات صيادين سمر الاذرع العارية ، ينشرون شباكهم الملونة . حمراء . خضراء . بنفسجية . صفراء . وينشدون للاسماك المتزاحمة على السقوط في الشباك . . .

ولكن الطائرة تتابع رحلتها الى غابة الصقيع الرمادية . . لندن . . . وهناك ، المطر

Akhawia.net

طبعا في استقبالي . دلو من الماء البارد المستمر في الانسكاب على رأسي منذ لحظة مغادرتي للطائرة . . ثم الاسفنجة المبتلة اياها والتي اتبين فيها كل مرة وجه أخي !

لندن باردة . ولندن تضج بالحياة والاحداث .

ساعات فقط ، ويبدأ الستار بالانحسار عما يدور في زوايا مسرحها ، ثم اجدني اناقش واتحمس وانتظر واغرق في تيار احداثها ، واذا انا واحدة من الملايين داخل مسرحها . . لندن حائرة ومضطربة .

ما تزال تعيش ذيول حوادث فرار عشرات السجناء ابتداء من فترة اعياد الميلاد ورأس السنة حتى الآن . . فشرطتها ما تزال تطارد بقية السجناء الذين لم يتم القاء القبض عليهم بعد ، ولم يستسلموا .

انهم حديث المدينة وشغلها الشاغل . اذ يندر ان يصطف رجال الشرطة في الشوارع لايقاف السيارات او الاطلاع على هوية راكبيها . . انه أمر تكرر في الاسبوع الاخير ، وهو لم يحدث في هذه المدينة منذ سنوات !! . . .

ثم تفتيش بعض البيوت او تفتيش احياء باكملها ، وما يرافق ذلك من اضواء كشافة وصفارات انذار . . هذا كله الى جانب عناوين الصحف جعل الناس يلاحقون القضية باهتمام شعبي بلغ حد المراهنة على السجناء ! . . وعاصفة النقاش الجدي لما تهدأ . .

ففي ندوة تلفزيونية عاصفة ، انقسم المتناقشون الى فريقين ، كل منهما يمثل احدى وجهتي النظر الاساسيتين :

الاولى تصر على ان لندن افسدت سجناءها بتدليلها لهم . . انهم اكثر رفاهية من غانياتها واهدأ بالا من طلابها الداخليين . وروى احدهم تلك الحادثة التي تناقلتها وكالات الانباء تأكيداً لوجهة نظره : دخل ليلة الميلاد شاب الى مركز البوليس وطلب ايداعه السجن ، ولما رفضت الشرطة تلبية رغبته لانه لم يرتكب اي جرم ، خرج غاضباً ، وعاد بعد دقائق وهو يحمل بيديه دراجة ، واخبر البوليس انه سرقها ! وهنا اضطروا لتحقيق امنيته الغالية : الاقامة في السجن ! وعرض التلفزيون ايضا كاريكاتورا طريفا من احدى الصحف يمثل حارس السجن وقد ارتدى ثيابا كتلك التي يرتديها جرسونات فنادق الدرجة الاولى ، ويتقدم سجينا الى غرفته حاملاً له حقائبه ، والغرفة فخمة مزودة باسباب الراحة كلها من تلفزيون وتلفون وراديو ومكيف هواء ، وهنالك درج مفتوح في ركن الغرفة وقد ظهرت فيه احدث معدات الهرب من السجون : سلالم وحبال وسكاكين ومسدسات ومنشار ومفاتيح . . . وبعد ان يضع السجان حقائب السجين ، في مكانها ،

Akhawia.net

ينحني قبل خروجه قائلاً بتهذيب واستحياء : هل استطيع ان اعرف كم تنوي ان تمكث لدينا يا سيدي ؟! . .

اما وجهة النظر المعاكسة ، فتصر على وجوب معاملة السجين معاملة انسانية حتى لو تسبب ذلك في تسهيل هربه ، فليس المقصود من السجن مجرد العقاب الاعتباطي ، وانما اصلاح الفرد دون ان يخسره المجتمع نهائيا . .

والسجن الجائر اللا انساني هو « مدرسة لتعليم الاجرام » لكل من دخله . . ثم ان هرب السجناء خلال فترة الاعياد بالذات دليل (صحة نفسية) لا دليل (مرض) ، اذ انه يثبت ان حسهم الانساني ما يزال متوقدا وروابطهم مع العالم الخارجي لما تنقطع وعواطفهم ما تزال تستثار . .

قالوا اشياء كثيرة اخرى لم اسمعها . . فخلف شاشتهم هذه ، وعلى بعد مئات الاميال منها ، هنالك شاشة اخرى لاحداث اراها بوضوح اينما كنت . . وعلى الشاشة الاخرى التي اراها باستمرار واسمها وطني رأيت ذلك السجين المجهول الذي ابتلع ابرة الخياطة بعد ان غافل حارسه ، لينتحر احتجاجاً على سجنه المرير ، والمعاملة اللا انسانية التي يلقاها فيه . . . خبر صغير قرأته في احدى صحفنا التي حملتها معي ! . . ورأيت قافلة من السجناء تزحف في مغاور التعذيب والاضطهاد التعسفي في اكثر انحاء وطننا العربي . . ورأيت (المسجونين) خارج السجون يعانون من الافتقار العام الى الفهم الحقيقي لمعنى كرامة الفرد كفرد ، كقيمة انسانية مجردة ، لا كبالون منفوخ يكبر حجمه وفقا لظروفه المادية او الاجتماعية ويصغر مع هبوط ارباح أسهمه ويعلن افلاسه الانساني لمجرد ان البنك الذي يودع فيه امواله قد اشهر افلاسه ! . .

سجيننا بائس ، وحتى السجين البريء الذي ينتظر محاكمته ، والذي قد تثبت براءته يخرج من السجن بعد ان حولناه الى مجرم حقيقي . . انه ينفصل نهائيا عن مجتمعه وتنقطع بينهما رابطة الابوة والبنوة وتبقى رابطة المقت والخوف المكبوت ، والكراهية العميقة الحاقدة . .

والفرد هنا يستطيع ان يقاضي المسؤول عن توقيفه خطأ ولو لمدة ساعات ويطالبه بتعويض . .

والفرد لدينا في أكثر الحالات يفرح بالافراج عنه ويعتقد ان نجاته هي كل ما يطمح به ! . . ان ثقته بالسلطات مفقودة ، وهو لا يحبها ، وكل ما يطلبه منها هو ان تتركه بسلام . . . وهو لذلك لا يشعر بالمسؤولية امام المجتمع الذي تمثله هذه السلطات ،

Akhawia.net

وبالتالي لا يعمل باخلاص اذ ليس هنالك ما يهز اعماقه ويشحذها . . .

كان لا مفر من ان يصمت صراخ هذه الافكار كلها حينما بدأت الحان تشايكوفسكي تغرق العالم . .

ففي الشارع المحيط بدار اوبرا « رويال البرت هول » وتحت الثلج الذي يندف بشدة كان آلاف الناس يتلمسون طريقهم بحثا عن الابواب التي يدخلون منها وفقاً لترقيم بطاقاتهم . . ورغم الجليد الذي يتكسر تحت اقدامهم فقد خرجوا جميعا للاستماع الى موسيقى تشايكوفسكي . .

وحتى انا ، سرت العدوى الي . .

كنت جالسة داخل الموقد ، وحينما سمعت المذيع في الـ (بي . بي . سي) يعلن ان اليوم هو ابرد يوم شهدته لندن منذ ١٢ سنة ، اخفيت وجهي في جمرة كبيرة ثم بدأت اركض داخل الموقد هاربة واستقريت قرب المدخنة متمددة بين السنة النار الاليفة . . . لولا تشايكوفسكي . . وصيحات الجيران الذين اذهلهم انني لا اريد الذهاب الى المسرح لسبب تافه كهذا : البرد . .

ووجدتني بين الاف الرؤوس المشكوكة على محيط دائرة كبيرة تتدرج صفوفها ملتفة حول الفرقة العازفة في الرويال ألبرت هول . وتعلو الالحان . لا همسة . لا كلمة . صلاة في الانصات . وحينما تهدأ الموسيقى بين مقطوعة واخرى تعلو عاصفة من السعال المكبوت . ثم الموسيقى . . وانا انصت وأتأمل . . . اطفال وشيوخ وعمال ولوردات . . وتعلق نظراتي بالاطفال واحس انني احسدهم لانهم يكبرون في مدينة فيها موسيقى كما فيها خبز ، وليسوا بحاجة لان يشدوا الرحال لصقل انسانيتهم وتسول مقعد في مسرح . . .

وفجأة انفجرت القذيفة ، واهتز المسرح باكمله ، وقفز احد الاصدقاء مرتاعا . . انه شاب عربي صغير وصل لندن منذ ايام بعد ان فاز باحدى المنح . . . وتابعت الموسيقى عزفها بين قصف المدفع وذعره والناس هادئون منسجمون . . .

انها افتتاحية ١٨١٢ لتشايكوفسكي التي يرسم فيها غزو نابوليون لروسيا . . . وتلك المدافع هي مدافعه ، وجزء من الموسيقى ، تماما كرنين اجراس الكنائس الذي يتبعها . ورغم انني كنت قد سمعت المقطوعة مسجلة مرارا لكنني ذعرت فعلا كذلك الشاب الصغير الذي أثار ضحك الرفاق المتآمرين . . بل انني كنت خائفة الى حد انني جمدت لبرهة ، كنت اكثر خوفا من ان احاول الهرب وبذلك نجوت من السخرية . . لم يخطر لي قط ان الناس يمكن ان يتجشموا عناء كهذا من اجل الاخلاص لمقطوعة

Akhawia.net

موسيقية . . . حمل مدفع نابوليوني باكمله الى الطابق الاخير في الدار ، وحشوه بالبارود واطلاقه بعد احكام عنف الطلقة بحيث لا يتجاوز صداها وما تبعه من هزة في البناء الضخم حدا معينا كي لا يؤدي ذلك الى انهياره . . بل انني حينما سمعت الطلقة الاولى ظننت بانني حملت لعنة اللااستقرار معي حتى الى لندن ، وتساءلت عما اذا كان الناس حولي هادئين لانهم حتى في هربهم يقفون في صف منظم كما يفعلون في المطاعم ومواقف الباصات !! . وانتهت ساعات الابحار في عوالم تشايكوفسكي التي يستسيغها الشرقي ايضاً لما فيها من نكهة شرقية اصيلة ، دافئة ورقيقة وموجعة كتلك الريح العابقة برائحة زهر الليمون والتي تهب في امسيات الربيع الاولى . . دافئة ورقيقة وموجعة كذكرى قصة حب ضاعت مع تلك الامسيات الغاربة .

Akhawia.net

لندن ١٣/ ٢/ ٦٧

على فوهة بركان « إل . إس . دي »

بمرارة أسأل .

بحزن أسأل .

هل كتب على قرننا هذا ان يشهد المصرع النهائي والكامل لاجمل اوثاننا البشرية ، واصدقها ، واكثرها رسوخا في تاريخه ، وبالتالي اشدها تعبيرا عن حقيقته الانسانية ، واعمقها جذورا في اغواره ؟ . .

بمرارة أسأل .

بحزن أسأل .

هل كتب على قرننا ان يشهد مصرع هذين الفارسين الشابين ابدا : الايمان والحب ؟ . .

وهل ستنطفىء نهائيا مع شموع هذا القرن هالات القداسة والاساطير والعنف الدامي البريء التي طالما اضاءت معابدهما .

عن « الايمان » و « الحب » ، اتساءل بمرارة منذ الصباح الباكر . . منذ التقيت بذلك الشاب المسترسل الشعر امام المدخل الرئيسي لجامعة لندن ، حيث وقف يوزع على الداخلين كراسا ما ، ظننته يتضمن بعض المعلومات الهامة كمناهج الدارسة او شروط الانتساب .

ذهلت وانا أتامل غلاف الكراس . لم اصدق ما تراه عيناي .

على الغلاف رمزان : احدهما (للجنس) المذكر ، والاخر (للجنس) المؤنث لدى اي حيوان (بما فيه الانسان) ! وقد رسما مكبرين ، احدهما بالحبر الاسود والاخر بالاحمر وبينهما اشارة جمع (+) . . وفوقهما هذا العنوان العلمي جدا :

عملية صنع الحب !! . . .

الصفحة الاولى في الكراس تسأل : هل انت يا عزيزي او يا عزيزتي بحاجة الى حبيب ؟ الامر بسيط . كل ما عليك ان تفعله هو الاجابة على الاسئلة المطبوعة في الكراس حول مواصفات الشخص المرغوب به . الشكل . الطول . العمر . الثقافة .

Akhawia.net

الهوايات . (الشذوذ مسموح به بل ومرغوب كاحدى علامات العبقرية) . . . اسئلة مفصلة حتى الاحراج ، دقيقة وشخصية الى حد مبتذل . لاحياء في العلم . لن يطلع على هذه المعلومات سوى آلة . ستضعها في مظروف مغلق مع جنيه استرليني واحد ثمناً لطعام الالة التي ستتولى خدمتك : العقل الالكتروني . . او الـ (كومبيوتر) . . ديكتاتور العصر الحديث . .

العقل الالكتروني يختار لك حبيبتك (او حبيبك !) . بعد اسبوع ، يصلك رقم هاتف الفتاة الملائمة واسمها ايضا ، فالعقل الالكتروني يلعب دور (الخاطبة) للشاب العصري ! . . وربما كان الفرق الوحيد هو ان خاطبة العصر الحديث ، (العقل الالكتروني) ، على استعداد لتقديم خدماتها للفتيات ايضا . . واذا كانت الخاطبة لدينا تقوم بمهمتها من اجل علاقة مثمرة كالزواج ، فالخاطبة الالكترونية على استعداد للعب دور (الواسطة) !

والمذهل انتشار هذا النوع الجديد من تجارة الحب . . واقبال الجيل الجديد عليه ببساطة تامة ! . .

ان الامر يبدو مريراً ومفجعاً بالنسبة لفتاة مثلي جاءت من كوكب آخر او ابحرت من قرن آخر ما يزال يؤمن ببعض القيم الروحية والقوى الميتافيزيكية : الحب من ابرزها . .

منذ الآن ، استطيع ان ارى مصرع نصف تراث الانسانية الادبي والفكري الذي شيده الانسان فوق صخرة شامخة اسمها الحب . . . حكايا الحب العنيفة ، الذين ماتوا من اجل الحب . . اشعار قيس . . هذا كله سيبدو ممجوجاً وسخيفاً لجيل تختار الآلات الحاسبة حبيبته ولون ثيابه وطبيبه النفسي ! . .

ان عملية « شراء كلب » للاسرة ستصبح اكثر عاطفة وانسانية من عملية « اختيار حبيبة» . . على الاقل ،سوف يختار كلبه لانه احبه . . .وعلى هدي ذلك الإحساس الغامض غير المنطقي الذي يجعله يفضل اللون الاصفر مثلا على اللون الاخضر دون اي تبرير منطقي حسابي محدد . . .

وهكذا ، تستطيع بشلن واحد ، ترميه في فم آلة الاسطوانات (الجوك بوكس) ان تستمع الى اللحن الذي تختار . . . وبجنيه واحد في فم (الكومبيوتر) ، العقل الالكتروني ، ان تشتري حبيبة . . وبثلاثة شلنات في فم الماسحة الميكانيكية تمسح حذاءك . . وبشلنين في فم آلة الغسيل تغسل ثيابك . . . وبثلاثة شلنات في فم بائع الصيدلية تشتري اسبرو تنتحر به . . . وتستطيع ان تنتحر مجانا ، اذا استطعت ان

Akhawia.net

تحصل على وصفة من الطبيب ! . . والواقع ان العبادة والموت وحدهما تستطيع الحصول عليهما بالمجان . والمعابد ما تزال مجانية وربما كان ذلك احد اسباب ضعف الاقبال عليها . .

فقد بدأ الشباب في لندن يعتنقون عبادة جديدة كثيرة التكاليف والاخطار : عبادة اسمها الـ (ل . س . د) . .

واذا كان ثمن الحب هنا (باوند واحد) تضعه في جوف آلة العقل الالكتروني ، فان ثمن العبادة الجديدة اكثر من خمسة باوندات تضعها سرا في يد عالم مجنون ليعطيك عقاراً جديداً هو اخطر افيون عرفته البشرية يسمونه الـ (ال. س. دي) . .

كمية اصغر من رأس الدبوس ، ولا ترى بالعين المجردة تكفي . . وهي تعطى له داخل حبة من السكر . . وتأثيرها مذهل . .

انها تفجر العقل الباطن . . تفجر الذات البشرية الداخلية . . ويدوم مفعولها ساعات عديدة يفقد الانسان خلالها توازنه . . يهذي . . يبكي بحرقة . . يصرخ . . يزحف . . يعض . . يتصور انه يستطيع ان يطير . . وبعضهم ينتحر !! . .

المرعب ان الذين يتعاطون هذا العقار يعتبرون انفسهم اتباع عبادة جديدة هي « الذات الداخلية » . . ويعتبرون تعاطي هذا العقار احد اهم طقوس ممارسة عبادتهم هذه . . وحينما منعت السلطات تعاطيه ، احتجوا على ذلك ، اذ ان القوانين تبيح الحرية الدينية ، وسبق للمحاكم الانكليزية ان برأت بعض الهندوس الذين كانوا يجمعون فطورا سامة لان ذلك من بعض طقوسهم الدينية . . لكن الحوادث المتتابعة جعلت السلطات تتخذ موقفا حاسماً من الامر ، ولا تأبه لاحتجاجاتهم القانونية وغير القانونية . . .

الـ (ل . س . د) مسموح به للاطباء النفسيين . وهو يعطى للمرضى باشراف الطبيب الذي يسجل ما يدور ويكشف عن اسرار الانسان الدفينة في آبار عقله الباطن . . ويظل المريض تحت اشراف الطبيب عدة ايام ريثما تزول آثاره تماما . .

وفي الصباح نفسه ، الذي سلمني الشاب ـ الفتاة فيه قسيمة طلب « عملية حب » ، قرأت في العناوين الاولى للصحف عن مصرع احد اتباع العبادة الجديدة اثناء (صلاته) . .

كان الخبر ببساطة كما يلي . .

شاب ، طالب جامعي ، ذهب مع فتاة غامضة لم يكشف البوليس عن هويتها ، الى احد اندية « سوهو » ، حيث تعاطى الـ (ل . س . د) . ثم خلع ثيابه . . وانطلق

Akhawia.net

يركض عارياً . ثم صعد الى سطح احدى الكنائس ، وهم بالتحليق وقفز محركا يديه في الفضاء كما لو كان يطير ، وسقط على الارض محطماً امام باب الكنيسة وذهولِ القسيس المشدوه . .

وبعض الذين يمارسون هذه العبادة يموتون انتحارا . . انهم يتفجعون بطريقة حيوانية دامية مذهلة . . .

أربعة طلاب في جامعة لندن ! من (أرزن) الطلاب واعقلهم قرروا تجربة العقار، واتفقوا (احتياطياً) على أن يتناوله ثلاثة منهم، بينما يرقب الرابع ما يدور. . وقرروا ان يسجل لهم اقاويلهم . .

وبالفعل . . احكموا اغلاق النوافذ والابواب واعدوا آلة التسجيل وبدأت التجربة . .

وبعد ساعات من الهذيان والانتحاب والهستيريا تعب زميلهم الرابع فخرج ليشرب كوبا من الماء ، وحينما عاد الى الغرفة لم يجدهم . . كان زجاج النافذة محطماً ، وفي القاع خلف النافذة ، فوق اسفلت الشارع تكوم الثلاثة بقايا دم معجون بالعظام ، ونخاع متناثر تحت الاضواء الصفر المغسولة بالمطر . .

وكانت اخر كلماتهم فوق الشريط المسجل بعد مغادرته للغرفة تقول : تعالوا نطير . . تعالوا نرحل . . نطير . . نطير . .

وفي كنيسة (لانكسترجيت) الاثرية العتيقة ، حيث تشدني الموسيقى ، ويأسرني احد رموز الانسانية الميتافيزيكية ، لاحظت ان عدد المصلين المكتوب على لوح اسود في الكنيسة يتناقص يوما بعد يوم . . ويتزايد يوما بعد يوم عدد الذبائح البشرية على معابد آلهة جديدة مدمرة : الـ (ل . س . د) والافيونات الاخرى كلها بما فيها افيون الذهول عن الحقيقة الانسانية الاساسية : الجانب الاخر الروحي . . انه الوجه الاخر للمرآة . . . ربما الوجه الاسود الغامض ، لكن تدميره هو في الوقت نفسه تدمير للمرآة كلها . .

وبعد . . .

فان حضارة يشتري ابناؤ ها الحب من العقل الالكتروني ، ليس غريبا ان تدفع بهم الى شراء الالهة من اسواق الهذيان والجنون . .

وبعد ،

ليلا . . بحثت عن كنيسة (لانكسترجيت) رغم عويل العاصفة . . اهتديت الى صوت ارغنها الحزين وسط غابة عويل بيتلز اقبية الحي .

Akhawia.net

وبحثت عن الباب الكبير الصدىء . . وتسللت الى المقاعد الخشبية الفارغة المهجورة . . . وجلست صامتة ساعات طويلة ، ولما انطفأت الموسيقى ، ورأيت في عيني قسيسها نظرة مدهوشة ومعتذرة بينما هو يتجه الى الابواب ليغلقها ، عدت من جديد الى الشارع حزينة ، وخيل الي ان جثث اتباع عبادة جديدة تغطي الارصفة تحت نوافذ حاولوا الطيران منها . . وان رذاذ ادمغتهم المتناثرة تلتمع تحت الاضواء الصفر المغسولة بالمطر . . .

وتمنيت ان ابكي . . لأطفىء هلع السؤال : ترى هل اشهد اليوم مصرع « الحب » و « الايمان » ؟ . . وهل ، وهل احاول ان اطير يوما ما من نافذة الى إله مجهول[1] . . .

والى الارض حيث اقف نظرت . . الى الاسفلت تحت الاضواء الصفر المغسولة بالمطر . . ورأيت وجهي في زاوية الرصيف المملوءة بماء المطر يتمزق ويتماوج مع ارتعاش الظلال الصفر المريضة . . وحينما مرت سيارة ، شعرت بها تدوس جسدي المستقر تحت الاسفلت . .

غمرني الهلع . . .

عدت اركض من جديد بحثا عن صوت الارغن العتيق العميق . .

ولكنني وجدت باب الكنيسة مغلقا وعلى خشبها العتيق ، في ثقب بابها الصدىء اخفيت دموعي .

---

(١) في شهر كانون الثاني ١٩٧٥ تناولت جرعة معتدلة من مخدر ال . س . دي للمرة الاولى وسجلت وانا تحت تأثير المخدر كل ما مر بي اثناء هذه التجربة الفريدة الخطرة . نشر النص في مجلة « الاسبوع العربي » تحت عنوان « السباحة في بحيرة الشيطان » بتاريخ ٧/ ٢/ ٧٥ .

Akhawia.net

زوريخ ٢٠/٢/٦٧

يدعون : الشمس تشرق من اسرائيل !! . .

لا اذكر بالضبط كيف بدأت اللعبة الجهنمية . .

لا استطيع تحديد تلك اللحظة التي كفت فيها اللعبة عن ان تكون بريئة ومسلية لتستحيل جارحة وقاتلة ومسمومة . .

ربما حدث ذلك حينما نطق ذلك الشاب السويسري بكلمة : « اسرائيل » وفاحت معها روائح الدم وومضت الاف الخناجر بينما كانت عيناه تواجهان ثورتي المفاجئة ببراءة مذهولة ! . .

كل ما اعرفه هو انني اكتب الآن من زوريخ . . بالضبط من كوخ على تل من الثلج (أحد بيوت الطلاب ـ يوث هوستل) . . عن مجموعه من الطالبات والطلاب من بقاع العالم كلها ، جمعهم امران : التزلج على الجليد والدراسة . . .

وكل الاحداث الطريفة ـ التي حدثت طوال النهار وقررت الكتابة عنها ـ تبخرت من حنجرة قلمي . .

وكل الاحداث الموجعة التي بدأت مع يوم رحلتي الاول تعود لتنبت من جديد في محبرتي ، وتلطخ بياض ورقتي بالسواد المهين . .

منذ يوم رحلتي الاول قررت : لن تقع عيناي الا على الجميل والمبهج . . سأتحدث عن شروق الشمس واترك لسواي مشاهد الغروب . . . سأرسم نصف الكأس الملآن بالماء ، واتجنب الحديث عن النصف الباقي : الفارغ . . ففي وطني العربي يعتب الجميع على كتّاب جيلنا : « لماذا هذا التشاؤم ؟ . . . ضياعكم مستورد ! حزنكم غير أصيل ! بلادنا لم تتعرض لويلات الحروب العالمية ! . . نحن بخير . نريد ادبا اصيلا . نريد كلمات (بيضاء) فعلا ، لا من باب التسمية باسماء الاضداد » . . .

ويوم رحلت، قررت في شبه مباسطة نفسية مع ذاتي : ربما كانوا على حق . . . سأرى الامور من جديد . .

وقد حاولت . . . وتعاميت . . وتغابيت . . عذرا ايها السادة ، ولكن كلمته الليلة « اسرائيل » فجرت كل شيء . . كل شيء . . . انها التعبير المحسوس عن واقع من الخزي المرير تهون امامه مرارة مدن تستلب في حرب عالمية ما . .

Akhawia.net

عذرا ايها السادة .

لا مفر من الصدق احيانا . واذا كان المرح والجنس من شروط النجاح لادبنا العربي المعاصر : فسوف اكتب كلمات لا علاقة لها بفن نحت الكلمات الادبي . . لنسمها هلوسات مواطنة تصادف انها ايام كانت تقف لتحية العلم في طفولتها في باحة مدرسة (الفيحاء) في دمشق ، كانت تفعل ذلك بحب غريزي مرير . . وصورة ذلك العلم الاخضر الاسود الاحمر الابيض ما تزال تقطن شبكية عينيها . .

مادا حدث ؟ ما الذي دفع ذلك الطالب المجهول ليقول ببراءة تامة : اسرائيل ؟ . .

لا اهمية لذلك اذا لم افجر الوقائع (البيض) منذ بداية الرحلة . . . فالانفجار الاخير ليس سوى حصيلة عشرات الانفجارات المكبوتة . . .

بدأت الحكاية في ملعب (للرغبي) في قرية قربية من لندن تدعى (ايشر) . .

كان البرد بارداً حقاً ! . . لا أجد صيغة اخرى اعبر بها عن مشهد ملعب اخضر العشب ممتد من الافق الى الافق وطبقة شفافة من الجليد تغطيه . . . ثم تكسر الجليد وذاب تحت اقدام الاف من الشبان لابسي الشورت ، لاعبي الرغبي يوم العطلة الاسبوعية ، الاحد . . .

وكنت ارقبهم من مبنى النادي ، عبثاً ابحث عن ساقي اخي السمراوين بين الاف السيقان البيض الراكضة المتلاحمة . . وعلى زجاج النافذة الانكليزي السميك كانت انفاس عشرات الفتيات الانكليزيات صديقات الشبان تتكاثف . . . ومن خلال الابخرة المتزايدة تستميت العيون بحثاً عن وجه ما بين المتبارين . . وكنت اشعر بالدفء والانس ، ومنظر الاف الشباب يركضون في الحقول المتجمدة كالخيول الاليفة البريئة كان من المشاهد النادرة للتجمعات البشرية التي لا تثير قرفي . . وكنت ايضا افكر كيف ان المرأة هي المرأة اولا واخرا . . انها تشاركه كل شيء في ساعات العمل لكنها يوم العطلة تلعب دورها (الحقيقي) وتنتظر رجلها في الدفء كالمرأة الشرقية .

ثم فجأة ، تمزق كل شيء . .

اقتربت مني فتاة مغسولة بالبياض مغمورة بالشعر الاشقر . . اسمها كما قالت حينما سألتني عن اسمي : باميلا . .

وانسجاما مع الافكار (الاليفة) التي كانت تتلاحق في مخيلتي في تلك اللحظات ، سألتها : هل قرأت رواية باميلا ؟ . .

Akhawia.net

ـ لا

ـ انها اول رواية انكليزية بالمعنى الحديث . يجب ان تقرأيها . . ثم ان اوصاف بطلتها تشبهك كثيرا . . .

وفكرت . هذه فتاة تمثل قسماً كبيراً من نساء هذا الشعب . انها نصف جميلة . نصف متعلمة . انيقة جدا . شقراء جدا . ولم تسمع بأحد أهم كتابها « ريتشاردسون » ، ولم تقرأ احد اهم كنوزها الادبية التي تدرس في مدارسنا نحن ! . .

سألتني بفضول وهي تتأمل شعري الاسود وبشرتي الداكنة وارتعادي المستمر لبرد الجو : وانت ، من اين أتيت ؟

ـ من بلاد دافئة دائماً . . مشمسة وجميلة . .

ـ ما اسمها ؟ . . .

ـ سورية ! . .

وقلبت شفتيها بجهل وسألت : اين ؟ . .

ـ لبنان . سورية . ألم تسمعي بهما . . .

قالت : لا ! . .

ـ على شاطىء البحر المتوسط . . شواطىء دافئة ، مراعيها قلما تعرف الثلج . . .

اجابت وقد اضاءت عيناها : تعنين اسرائيل !! . .

وغمرتني رغبة عربية تقليدية في تحطيم كأس البيرة في يدي على رأسها ، ثم دفنها في التهاب الموقد والصراخ بها على طريقة يوسف وهبي : اذهبي الى الجحيم . .

لكن فضولي كان اقوى من ثورتي . سألتها بلا مبالاة :

ـ اسرائيل . . ماذا تعرفين عن اسرائيل . .

ـ كنت هناك ! هذا الصيف . . .

ربما ظنتني اسرائيلية . ربما اقنعوها بان الشمس تبزغ في اسرائيل ، وانه ليس في بقاع الشرق الاوسط المتوحشة سوى مركز حضاري واحد اسمه اسرائيل . . وفهمت منها أنها قضت على شطآن حيفا ويافا اياما رائعة . .

ذهبت في رحلة سياحية عادية ، ولكن باجور شبه رمزية ! . (طبعا حكومتهم هناك تشرف على المظهر المدني العادي للرحلة وتموله) . .

الاعلان علق على جدران مدرستها في القرية ! ذهبوا جماعة كبيرة تنتمي الى الشعوب المختلفة . صديقها من المجر رافقها . الدفء هناك لا يصدق (لا بد انك

Akhawia.net

تتجمدين هنا . هل أنت من حيفا ! . . ام من يافا ـ هكذا سألتني !!ـ) « اسرائيل بلاد رائعة . . . لا بد انك سعيدة فقد حققتم التطابق بين الواقع والاسطورة ! » . . كغربية تسحرها الاساطير ، وتستولي عليها اكذوبة حلم اسرائيل العتيق . . لقد قرأت عن عجنون الاسرائيلي الفائز بجائزة نوبل ومع ذلك لم تسمع عن ريتشاردسون اديب بلدها العظيم . . عادت وهي ممتلئة ايمانا بجمال (وانسانية) ما يجري هناك ! . . (كتب عجنون اهديت اليها هناك ، وطبعا لم تسمع بإنسان اسمه غسان كنفاني !) . . .

وحينما عاد أخي الي ، وعدنا في السيارة المظلمة انفجرت اهذي قهرا وغيظا وكمدا . . ف (باميلا) لم تقصد ايذائي . . . ان صوتهم وصل اليها . . واكاذيبهم دمغت قلبها البريء كما تدمغ كل يوم عشرات قلوب الفتية الاوروبيين . . . اين صوتنا ؟؟ . . .

ليلتها جلست ارقب التلفزيون صامتة . . وكانت صدمة جديدة .

مسلسل انكليزي اسمه (آدم ادموند) . . بطله شاب كان ضحية تجربة علمية تسببت في نومه مئات الاعوام في الجليد ثم عاد الى الحياة . . انه نسخة انكليزية عن جيمس بوند (المتأمرك) وأرسين لوبين الفرنسي . . . وليست ثيابه الانكليزية العتيقة التصميم وعصاه وبروده هي الامور المبتكرة فيه . . الجديد فيه « اعداؤه ! » . . انهم من « العرب » . .

انهم عرب اغنياء تسترت عصابتهم خلف مظهر بيت للمساج والرياضة . . . مجموعة من الاخوة وابناء العم الذين يتنازعون فيما بينهم بالاضافة الى تعاونهم على الجريمة والايذاء . . وآدم أدموند هذا ينقذ فتاة انكليزية وقعت في حب محمود احد القريبين من العصابة وبالتالي تم اختطافها لارغام محمود على توقيع شيك تنازل بأمواله . . .

ويستغل المسلسل بعض رموزنا الفولكلورية استغلالا بشعا مبتسراً . . . اننا في المسلسل الذي يقدم اسبوعيا اقوامنا من البدو الرحل ، او التجار المحتالين . . نروض الافاعي ونربيها في بيوتنا كما تربي الفرنسيات والانكليزيات الكلاب والدواجن ـ ونستخدمها في قتل اعدائنا او الانتحار (على طريقة كليوباترة) . . والرقص الشرقي نوع من (العهر) العلني لتخدير اعدائنا ، وراقصاتنا شبه العاريات يتشنجن ببلاهة مقرفة باسم الرقص . . وأما مأكلنا فأهم طبق فيها عيون الغنم وبيوض الافاعي ، وهي تحمي من ـ الضعف الجنسي !! ـ فمن المفروض اننا اقوام تعيش لاغتصاب اكبر عدد ممكن من العذارى ! . . ونحن ندق اعداءنا الابرياء على الجدران و (نقطعهم بالسكاكين كالشاتوبريان !) . . . وابطال المسلسل من (العرب) يرتدون البذلات الغربية مع

Akhawia.net

(العقال) العربي ! . . وطبعا ينتهي المسلسل بانتصار آدم ادموند على أكلة اللحوم البشرية اعداء الحضارة (العرب) . . .

وجريا على عادتنا في تمزيق اية صفحات معادية لنا ، اغلقت التلفزيون بينما قال احد الاصدقاء الانكليز معتذرا : اننا لانقصد الاساءة لكم . . . مسلسلاتنا تحمل دوما فريقا من الاعداء (الغرباء) ، وهم احيانا من اليابان او من الصين او العرب . . . ولكنه لم يقل لي لم توقف اخراج مسرحية « تاجر فينيسيا » مع انها من اجمل مسرحيات شكسبير . . لم يقل ان السبب هو ان المرابي فيها يهودي فيه بذور العقلية التي انشأت شيئاً اسمه اسرائيل : الرغبة في اقتطاع لحم الضحية التي عجزت عن دفع الدين ! . . ولم يقل لي شيئاً آخر حدثني به اخي حينما اطفأنا النور لننام ، وصار بوسع كل منا ان يخفي وجهه عن الآخر . . قال : في الاسبوع السابق لمجيئك كان موضوع المسلسل طائرة هبطت اضطراريا في ارض عربية . . . ولقي الابطال الشقر ما لقوه من العرب (البهائم !) لكن بطلهم انتصر كالعادة وهرب !! . . . ولم يحدث ابدا ان دار موضوع المسلسل في اسرائيل . . ان اسرائيل في نظر زملائي اليوم هي الجنة المشمسة التي يحلمون بقضاء اجازاتهم فيها . . .

وتعاقبت عشرات الاحداث . . .

وفي كل مرة كنت اغص باسماء كثيرة . . خالد بن الوليد . . صلاح الدين الايوبي . . . عمر بن الخطاب . . .

حتى الذين سمعوا عن ابطالنا ، يتحدثون عنهم كما لو كانوا قراصنة ! . . انهم في كتب تاريخ تلامذتهم اعداء للانسانية ولحضارة اوروبا ! . .

هنالك حقيقة جديدة لا مفر من الاعتراف بها . . . ويجب ان نعترف بها وان نجابهها لا ان نهرب منها ـ ونمنع وصول اي حرف يتعلق بها الى آذاننا ـ هذه الحقيقة هي : ان اسرائيل تعمل بموجب خطة مدروسة متكاملة الجوانب للخروج بقضيتها الى حيز جديد ، وللظهور بمظهر البقعة الوحيدة التي تدافع عن الحضارة والانسانية وسط بحر من الجهل العربي الغارق في تخلفه وجهله . .

وفي عدد التايم الاخير طالعت مقالاً عن احد البلدان العربية ومطلعه يصف ارضي بالقحط الزراعي وبالخصب في انبات المشاكل والدمار ، وخصوصا على حدود (المسكينة) اسرائيل ! . . (آمل ان تكف الرقابة عن تمزيق الصفحات التي تسيء إلينا . . . يجب ان نطلع جميعا عليها ، لنعرف ما يدور حولنا ولنجابهه) . .

Akhawia.net

إن سوء فهم العالم لبلادنا عار سوف يلطخ التاريخ الانساني اعواماً طويلة . . واذا كانت المانيا الحديثة تدفع ثمن اضطهاد النازية لليهود حتى اليوم (للاسف شحنات من الاسلحة لاسرائيل) ، فلا ادري كيف يدفع العالم (الحر) ثمن اضطهاده المقصود وغير المقصود للعرب . . لقد بدأ جيلهم الجديد يصدق الاكذوبة الكبرى اسرائيل ، وجيلنا الجديدلم يع بعد معنى هذه الصدمة وتأثيرها حتى على اصغر زوايا حياته وتصرفاته . .

وماذا ايضا ؟ عشرات الاحداث الصغيرة التي ترسم خطوطا عريضة لمرحلة جديدة في عمر جريمة هذا القرن الكبرى اسرائيل . .

صديقة لي ، نزلت في فندق (ريتشماند) في لندن ، فقد زكوه لها ، واخبروها ان صاحبه عربي الاصل واكثر رواده من اللبنانيين رغم بعده عن قلب مدينة لندن . . .

تحرش بها شاب وقح على مائدة الفطور . . . حينما علم انها لبنانية ، امعن في تحديها . . . قال لها انه اسرائيلي وهو لا يكره لبنان . . . بالحرف الواحد قال : « لبنان بالنسبة لنا كعكة شهية سيكون لنا نصيب منها » . . غادرت غرفة الطعام ثائرة ، ودق باب غرفتها بعد دقائق احد الجرسونات يحمل اليها مظروفا كبيرا ، في داخله كتاب دعائي مصور عن شيء اسمه « اسرائيل » . . . وهو يشرح بالصور وبلغة انكليزية (توراتية) قضية (شعب الله المختار المضطهد) ! . . .

وماذا ايضا ؟ . . يمزقني ان املأ قلمي بالسم بدل الحبر لاقول ما أقول ! . .

دخلت صدفة الى احدى البقاليات دون ان اقرأ اسم صاحبها . . واشتريت ما اشتريت . . ودفعت . . وعبأت لي العاملة ما اشتريته في كيس ، وذهلت ! . . . على الكيس اسم كبير « كوهين » ، وخارطة لاسرائيل ، وبعض الملاحظات الدعائية . .

وطبعا رمينا بالكيس وما فيه حانقين . . وضحك صاحب المحل بحبور ساخراً ، وضحك بعض الرواد (الابرياء) من غبائنا واستغربوا مثل هذا التصرف المضحك الأرعن (وكانوا للأسف على حق) !

وحينما قررنا ـ أخي وأنا ـ ان ننام بلا عشاء ، كنا نعرف ان ذلك لا يحل المشكلة ، وان القضية بحاجة الى وعي واقعي جديد وجماعي . . .

وعي واقعي جديد وجماعي يتسلل الى حياتنا كلها حتى الجذور ويقلبها هناك في وطننا العربي . . وعي يبدل مناهج دراستنا واسلوب حياتنا واهتماماتنا ومشاغلنا ومحاضراتنا وموضوعات لهونا وكل شيء . . . يجعل منها شيئاً متماسكاً مركزاً هدفه الواضح والوحيد استعادة وطننا وذاتنا وردالاعتبار لسمعتنا العالمية التي يكاد التمثيل بها يتم ! . .

Akhawia.net

قررت ان اذهب الى اي مبنى سفارة عربية ، لأستعيد شيئاً من الطمأنينة لنفسي الضائعة . . عبثا . . . تصادف ان كان اليوم يوم أحد . . .

وذهبت فلملمت كل ما في المدينة من صحف عربية . . . ومجلات . . وقرأت . . وازددت فجيعة . .

ما زلنا غارقين في تفاهاتنا المحلية وغرورنا الفردي السقيم . . ان احدا من كتابنا (الكبار) المغرورين لا يدري انه لا يساوي شيئاً هنا لان حجمه الحقيقي (بالنسبة للعالم) يستمد من حجم بلاده ، ولان مقاييس العالم قد تبدلت ، ولان هناك ـ اسرائيل ودعايتها ـ تعبث بالموازين حينما يدور البحث عنا وتغالط ، ولاننا بغرورنا وجهلنا نسهم في تسهيل مهمتها ونمنحها مادة اولية ، ومزيدا من الفرص ! . .

اعود الى هنا ، الى الكوخ المدفون في الثلج قرب زوريخ من حيث اكتب . .

هذا المساء ، كان كل شيء هادئاً وبريئاً بعد صخب النهار وسقوط اكثرنا مهشمين في محاولاتنا العقيمة للزحف الرشيق على الثلوج كالكلاب القطبية . .

هذا المساء ، اجتمعنا متعبين ، وجوهنا مختلفة الالوان والتقاطيع ـ شرقية وغربية ، سويدية وزنجية واسبانية وألاسكاوية ويابانية وفرنسية ـ وجلسنا نسمر مجموعة من التلامذة من مختلف انحاء العالم ، وكان الحوار مزيجاً من الفرنسية والانكليزية . .

أقول ،

لا أذكر بالضبط كيف بدأت تلك اللعبة الجهنمية . . قررنا ان يذكر كل منا اوصاف البلد الذي جاء منه ، ويتولى الباقون تخمين اسمها . . وللفائز جائزة . .

وقال الفرنسي : ايفل . اورليان . . وصرخنا فرنسا .

وقالت اليابانية : كيمونو . جيشا . . وصرخنا اليابان .

وقلت لهم : شمس . سيف . ارض التاريخ والاديان ، والانبياء . . . صمتوا . قلت : البحر المتوسط . . . وظل اكثرهم صامتا ثم تطوع السويسري فقال : اسرائيل طبعا ! . . . وانضم اليه بعضهم ببراءة : أسرائيل . . . والتمعت عينا احد الشبان بخبث وهو يهلل : طبعا اسرائيل . . . وبسرعة استلم دفة الحديث . . وذهلت وانا اكتشف ان خمسة من العشرين الذين ضمنا الكوخ واياهم قد زاروا اسرائيل في رحلات مدرسية منظمة ! . .

وعلى مائدة العشاء سألني احد الطلاب شبه معتذر : لم تقولي لنا من اين أنت ؟ . .

قلت : سورية . لبنان . . .

Akhawia.net

قاطعني : تعنين قرب اسرائيل !! . . . وقبل ان اسكب صحن الحساء على نفسي وعليه ، كان الطالب ذو العينين الخبيثتين يوزع على الزملاء كراسا « لاسرائيل » كذلك الكراس الذي حملته الي الصديقة نزيلة فندق الريتشماند في لندن . . .

عذرا ايها السادة . .

كنت اتمنى ان انحت كلمات شهية ، ارشق فيها عبارات شعرية عن الحب في براري الشفاه الظمأى والخطيئة على تلال النهود وقراصنة اللحم النسوي الحلم . .

عذرا ايها السادة . . .

ضياعنا حقيقي . . . نحن احفاد صلاح الدين وخالد بن الوليد وحمورابي وعمر بن الخطاب . . . مؤامرة ضياعنا عن جذورنا الحقيقية تكاد تدمر كياننا . . نعيها حينما نخرج من قرانا الصغيرة الى العالم الواسع ونرى قسوة العيون في الحكم علينا وجهلها بحقيقتنا . . .

عذرا ايها السادة . .

من قلبي كله اتمنى ان لا تحمل لكم حروفي سوى الضحك ولذا اروي لكم نكتة انكليزية (لا معقولة) . . نكتة جديدة النوعية وغير منطقية على طريقة مسرح اللامعقول : « عذرا . لا استطيع . احتفظ بها لكم للاسبوع القادم ، فأنا الليلة حزينة . انها نكتة مضحكة . الا تثقون بكلامي . اضحكوا اذن على ما يدور في رأسي » . . . (انتهت النكتة الانكليزية) .

خلف النافذة عاد الثلج يهطل . لا ريب في انهم انتهوا الآن من مطالعة كراساتهم عن اسرائيل . . .

Akhawia.net

باريس ٦/ ٣/ ٦٧

العرب في مرآة أوروبا الصهيونية

آلة بعد اخرى . . . (قطعة نقدية بعد اخرى في ثقب كل آلة . . ثم زر اضغطه . . تطيع الالة الاوامر) . . .

آلة بعد اخرى . . .

وقفت امامها جميعا وانا في طريقي الى كهوف المترو تحت الارض . . كانت مصفوفة في الممشى الكبير الذي يقود اليه . .

آلة الطوابع . آلة بيع السجائر . آلة بيع السكاكر . . وآلة ، وآلة . . وفي كل مرة التقط الحصيلة ، اتلفت حولي بحذر ثم اهمس للآلة : شكراً . . .

ففي هذه المدينة الواسعة المتخمة بالغرباء ، يصبح التفاهم مع انسان ما معجزة غير عادية ، وتصبح استجابة آلة لرغبة ما ، لحظة حلوة تذكر بالانس والالفة ولكن بطريقة مريضة شرسة . . .

واعترف : في البداية كنت احس بان المترو يذلني ! لا ادري بالضبط لماذا ، لكنني وانا احشر داخله ، وانا أقذف في امعاء المدينة المظلمة القذرة ، احس بكراهية مشلولة لصوت الآلة الرهيب الذي نفث سما اصفر في العيون المتعبة المحيطة بي ، والعدائية .

ولذا كنت دوما وانا في طريقي اليه ، احاول ان اذل اكبر عدد ممكن من الآلات الصغيرة المرشوشة حولي . .

ثم نشأت بيني وبين تلك الآلات صداقة من نوع مذهل . . انها دوما تستجيب لرغبتك . دوما تلبي . . واحيانا ترفض بصدق وترمي بوجهك قطعة نقودك بكبرياء صامت وبلا مبرر تقدمه ! . . وصرت اشكرها ، واحيانا تساورني رغبة موجعة في التحدث اليها . . وبدأت ارى في اضوائها الصغيرة عيونا تغمز بحنان دافىء . .

هبطت الدرجات الاخيرة وانحرفت في الممشى الطويل الاخير الذي يقود الى رصيف المترو وكنت ما ازال غارقة في افكاري (الوجودية) هذه ، وتأملاتي (الذاتية) حينما بدأ يعزف فجأة . .

انه ذلك الاعمى الجالس دوما في هذا الممشى معانقا (اكورديونه) عازفاً من وقت الى آخر الحاناً تتدفق فجأة في شرايين الممرات والدهاليز وتفجر في شرايين العابرين

Akhawia.net

الراكضين ذكريات بعيدة كان يظن انه اغتالها تماماً . . . انه من أحب ما في باريس الي ، وهو ـ بعد الآلات ـ اكثرها تأثيراً في رخام لا مبالاتي . .

وبدأت خطواتي تتقلص وانا احاول ان أذكر اين سمعت هذا اللحن من قبل . . .

تذكرت ، فاستحلت قنفذاً مسموما . . سمعته منذ ايام فقط . اسمه « انشاء الله » . انه اغنية (لادامو) . . اغنية تتحدث عن الجزائريين او اي من العرب كما يتبادر للوهلة الاولى قبل سماعها بينما هي في الحقيقة اغنية تتحدث عن اسرائيل . . . عن الحنين الى اسرائيل . .

وظللت اسير نحو المترو وانا اتذكر كلماتها التي اثارت جنون اخوان من الطلاب العرب يوم سمعناها للمرة الاولى في احد المقاهي بعد دعاية هائلة اثارت فضولنا . . .

الاغنية تتحدث عن (المسالمين) الذين يعيشون في اورشليم . . عن الثلاثين الف شجرة التي زرعوها ، والعرب الذين يحرمونهم من المياه اللازمة لرعايتها !!! (يقصد تحويل العرب لمجرى نهر الاردن الذي لم ينفذه العرب ونفذته اسرائيل لصالحها طبعاً) . . . وعلى هذه الوتيرة تستمر الاغنية . .

وفرحت حينما وصل المترو بضجيجه ، وكففت عن سماع الاغنية المشؤومة . .

سقطت على اول مقعد فارغ . . انطلق المترو في دهليزه المعتم الضيق ، وفوق الجدار الراكض عادت الاحداث تنتظم امام عيني . . لم يعد هنالك مفر من ذلك . . لم يعد بوسعنا ان نغرق في افكارنا (الذاتية) او (الوجودية) ، اننا فعلا بحالة حرب مع عدو يمتاز بالتخطيط الواعي العصري . . . والفرد العربي هنا صار يجد نفسه يوماً بعد يوم في احتكاك مباشر ومتزايد مع هذه التحركات الاسرائيلية . . .

ان قضية اسرائيل بالشكل الذي تطور طرحهم لها لم تعد تهز في العربي نخوته فحسب بل وانانيته ، وبقاءه . . انها لم تعد قضية (وطنيته) فحسب بل وقضية (خبزه) وأمنه واستقراره . .

ولم يعد الحديث عما يدور هنا ، مجرد مناسبة سنوية يستعرض فيها الكاتب (عضلات قوميته) ، وانما صار واجبا حقيقيا . . كواجب صفارة الانذار قبل الغارات . . وربما لا يشنف الاذان بموال مخدر مطرب ، لكنه ينقل الحقيقة بحرارة صهيل الخيول الوحشية التي تصهل قبل الزلزال ، وتتنبأ بالعواصف . .

اقول ، خرج الامر عن نطاق الكواليس السياسية ، وبدأ السم يتسرب الى اهل المدينة جميعا ـ الشيء نفسه في كل مدينة أوروبية ـ وعن طريق اكثر الامور تأثيراً في النفس

Akhawia.net

البشرية واعمقها اثرا : الفنون جميعا . موسيقى . تصوير . ادب . شعر . .

شريط الاحداث التي لم تكن صدفة يركض امام عيني . .

وصلت باريس متعبة كالناس جميعا . سألت موظف الاستعلامات عن مكان آوي اليه . اعطاني عددا من العناوين . هتفت لبعضها : لا مكان . المرأة التي ردت على هاتفي الرابع قالت انها بانتظاري . وقف التاكسي امام العنوان.انه (أحد بيوت الشبان الأكثر رخصاً من الفنادق يوث هوستل) يدعي (لانوف) . امامه شارة الكشاف الدولية . سجلت اسمي وأرحت حقائبي ، وكنت اكثر تعبا من أن اقرأ الاعلانات امام الباب . صباحا جمدت وانا اقرأ على المدخل :

الجميع مدعوون مجانا ليلة الاربعاء ٢٢/ ٢/ ٦٧ لحضور حفلة شاي وعرض فيلم ولوحات من اسرائيل . .

وهنا فهمت سر الانزعاج الذي بدا على وجه مديرة المكان وانا اناولها جواز سفري الذي لم تعرف حينما قالت لي (على الهاتف) ان احضر ، انه عربي . .

وهنا ايضا فهمت سر النظرات اللئيمة التي رمتني بها فتاتان من الواضح انهما اسرائيليتان . . .

وقررت ان ابقى وان ارقب ما يدور . . مساء ، في قاعة الجلوس ، بعد احدى مقطوعات باخ الجميلة تطوعت واحدة منهن ونهضت تختار لنا الاسطوانات ، وكان في عينيها تحد بارد لئيم وهي ترمقني من طرف اصفر في عينها . .

اغنية اسرائيلية . . بالعبرية . . والموسيقى عربية اسبانية . . عدد من الاغاني . .

الآن ، لا بد من نظرة حيادية الى العدو ، هي ما نفتقر اليه كخطوة اولى في الدفاع عن حقنا الكبير الذي يكاد يطمس نهائيا في اذهان الاوروبيين . .

الموسيقى حية ، وعنيفة ومليئة بالحياة والحنين وسريعة بالاضافة الى طابعها الشرقي الجميل . . انها افضل ما يمكن لشعب ما ان يقدمه كصورة عن نفسه (اقول ذلك بمرارة حقيقية) . .

وظللت صامتة ، واحس بعشرات العيون المتحدية مسلطة علي . . ظللت باردة كالثلج . . وفي الصباح حينما اكتشفوا ان الاسطوانات الخمس للسلسلة (اغنية اسرائيل) قد تحطمت لم يكن بوسع احد اتهامي . ولكن سألتني المديرة ظهراً فيما اذا كنت قد وجدت غرفة ام لا . .

ربما كانت صدفة ، ولكن ، ليلة حفلة الشاي الاسرائيلية في مركز من المفروض انه

Akhawia.net

يمثل الكشاف العالمي ، رأيتهم يحملون البراد العتيق بعيدا ويستبدلونه ببراد كبير فخم وصل هدية من المركز الكشفي الامريكي . (مطلوب من الهيئات الكشفية عندنا اخذ العلم) . .

وماذا ايضا . .

فلأ قل ما عندي ، ولو تعرضت لمس (تابو) عربي كبير اسمه ام كلثوم وعبد الوهاب . .

ففي الوقت الذي كانت « اغنية اسرائيل » (مصنوعة) خصيصا وبنجاح لاظهار كورسها من المواطنين بمظهر الشعب المسالم المتحضر المعذب طيلة قرون ولاقناع الاذان الاوروبية الفتية بحق هذه (الجماعات الطيبة !) بالحياة ، كانت اسطوانة ام كلثوم « فكروني » بين اوراقي وقد حملتها معي من آخر الدنيا لاقدمها بفخر لاصدقائي الاوروبيين . .

اعترف . . انا لا أكره اغاني ام كلثوم . . واحيانا استمع اليها نصف ساعة طويلة صامتة وبلا ملل . . لكن ما يدور هنا يفرض علينا طرح القضايا بمقاييس جديدة . . فكرت . . لو ادرت اسطوانتها « فكروني » للمستمعات الاوروبيات بعد الاسطوانة الاخيرة ، اي انطباع يحملون عنا ؟؟ . .

لنفترض انني احب ام كلثوم . تهزني عاطفيا وتفجر دمعي ، ولكن ، في هذه المرحلة بالذات ، اعتبرها تضخما عاطفيا في مجال ذاتي جدا وبالتالي قاصرة عن التعبير الصحيح عن حقيقة اعماقنا اليوم ،

الموسيقار العظيم هو الذي يتحسس حقا الابعاد النفسية والوجدانية والقومية لجيله ، ويتطور مع تطورها . . ما قدمه لنا حتى الآن (لقاء القمتين) ما زال قاصرا عن التعبير الكلي عن ذلك . انه ناجح حتى الذروة في التعبير عن زاوية واحدة في الفرد العربي المعاصر : الزاوية العاطفية الذاتية ، ولكن : تبدلنا .

خلال السنوات العشر الاخيرة تبدلنا ، ونريد من فنانينا الكبار ان يفهموا اننا تبدلنا . . لم يعد جيلنا مكبوتا ولم يعد معزولا عن قضاياه القومية . . ونريد من فنانينا الكبار ان يساعدونا على استيعاب هذا التطور للانطلاق منه الى مرحلة عمل غير ضبابية . .

اقول اخشى ان يخلف جيلنا كباره وهم احياء ، او يعيد تصنيفهم وفقا لقانون الحياة الاول : التجدد . .

Akhawia.net

تلك الليلة ، احسست للمرة الاولى ان ام كلثوم وعبد الوهاب خذلاني . . وادركت سبب اعراضنا عن كثير من كتابنا وشعرائنا الذين كانوا كبارا . . . لقد توقفوا ، تحجروا . . والحياة تسير . في هذا العالم الواسع الذي لم نعد نستطيع العزلة عنه . .

لا اريد فقط ان اعبر عن عواطفي الشرقية الحارة ، وتفجعي للذكرى . . اريد ايضا اغنية تحمل للعالم جوانب نفسيتي الباقية كجزء من مجتمع عربي ناهض ، يصوره اعداؤه في كل لحظة (بالافيونية) (والزعبرة) والكسل والبلادة في الموضوعات الجدية . . وكجزء من أمة تحاك ضدها مؤامرة مذلة الوقاحة . .

اغنية (يا مصطفى) الفرانكو آراب التي فرحنا بها وهللنا لها اخجل ان اقارنها باغنية (آدامو) الاخيرة عن اسرائيل . .

(تعال يا مصطفى يا ابن الحلال . . .

. . . . . .

لما بيجي كيفو ، بيشرب على كيفو) . .

نحن اقوام (الكيف) . وهم زراع الثلاثين الف شجرة . . . وفي ابيات من الشعر الرقيق والمؤثر ينشدون (لاورشليم) !

للاسف . للاسف . لو كنت لا ادري لصدقتها . . للاسف ، الجيل الاوروبي الطالع (لا يدري) لانه لم يعاصر الكارثة ، ولان معلوماته عنها حتى اليوم ضئيلة وغامضة ولان اسرائيل تزور التاريخ بينما نتلهى نحن بالعمل على افتعال العمل ! . .

الرجل القابع امامي في المترو يحمل بيده ترانزستور . اعرف ، لو كان بوسعه ان (يفتحه) لسمعت اغنية (انشاالله) . لقد تم بثها ثلاثة ايام متوالية من دار الاذاعة هنا ، وبعد اسابيع سوف يرددها ببراءة ـ وبدون براءة ـ الاوروبيون وسوف ترسخ في اذهانهم اكاذيبها الافعوانية الناعمة الكلمات . .

السيد (آدامو) استضافته اسرائيل على ما علمت بعد ان زرعوا في حلقه كلمات الاغنية . . اسطواناته الموزعة في بيوتنا اتمنى ان يتم جمعها علنا في حملة دعائية خاصة ثم ارسالها مكسرة اليه . . يحزنني ان اذكر كم كرمناه حين زار بلادنا ، وكم نكرم كل عابر سبيل من صعاليك الفن المعلقين على الواح بورصة (من يدفع اكثر) . .

زملائي الطلاب العرب جميعا يعون هنا هذه الاساليب الجديدة المتزايدة . . في صدر كل منهم عشرات الحكايا المشابهة . . حضرت احد اجتماعاتهم واذهلني فهمهم للموضوع بطريقة مباشرة وعملية في حين ما نزال هناك في اوطاننا ضائعين بلا تخطيط عملي ،

Akhawia.net

مباشر للكارثة التي تتهددنا فعلاً وعملياً . . وكل مواطن عربي ، يعيها ، سينظر الى اطفاله بحنو اذ يرى خلفهم ظلال الخيام ، وسينطلق من هذه النقطة ليعيد تقييم عالمه كله : الفكري والاخلاقي والاقتصادي . .

اؤمن ، ان وعيا اجتماعيا كهذا كان دوما يرفع المانيا عن حضيض الدمار . . وهو وحده قادر على انقاذنا قبل فوات الاوان . .

ينطفىء الشريط على الجدار . يوقظني اسم المحطة (كونكورد) .

خرجت باحثة عن قصر اسمه (لوبيتي باليه) حيث معرض « توت عنخ آون » . . ولم اصدق المشهد . .

كانت تمطر ، وتحت سقف من (المظلات) وقف مئات الفرنسيين والسياح في صف طويل بانتظار دورهم للدخول الى المعرض . لا أبالغ فعلاً اذا قلت ان طول الصف يتجاوز المئتي متر . . وباعة الجرائد يدورون حول الناس يبيعونهم عددا خاصا عن المعرض اصدرته احدى كبريات الصحف الفرنسية . .

واحسست بفرح حقيقي صادق . . هذه دولة عربية تواجه بطريقة عملية وغير مباشرة (وبالتالي فعالة) اسطورة الصهاينة الجديدة عن (توحشنا) نحن اهل (الكيف) . . وهذه آثار مذهلة تثبت عراقة تلك الاصقاع العربية وماضيها الحضاري . . فكرة مدهشة لاقت الرواج المنتظر . . تعريفة الدخول (٥) فرنكات . عظيم ، لا من اجل الدخل القومي ، ولكن من وجهة النظر الاوروبية : فهم دوما يسخرون من عطائنا لاننا نمنح مجانا . . ان نجعلهم يدفعون هي الخطوة الاولى في طريق تقديرهم لنا . .

ومع ذلك ، واسترسالا مع لحظة رائعة من لحظات الصدق التي اكتب هذه الكلمات تحت وطأتها ، اقول ان الشروح كتبت على التماثيل بلغة واحدة (الفرنسية) ! . . في البداية لاحظت ذلك كهفوة سياحية ، ولما خرجت من المعرض قلت لصديقة فرنسية ترافقني وتدرس النحت مفاخرة مباهية : ما رأيك بماضينا الحضاري ؟ ألم تلاحظي ان التماثيل الفرعونية تشبه الفن الحديث بكثير من مزاياها ؟ لِمَ لا تعدِّين اطروحتك حول هذا الموضوع ؟

لو كان هناك سطر من الشروح العربية التي (لن يفهمها أحد طبعاً) لفهم الجميع ان منبت هذه الحضارة أرض عربية ولربحنا دعاية أكبر من معرض ناجح كهذا . .

Akhawia.net

عدت الى الشوارع والمطر . مررت بالمقهى الذي يؤمه اكثر العرب من جيل المخضرمين (كافيه دي لابيه) ، ورأيتهم جالسين كعادتهم ، مسترخين على المقاعد يرقبون الطريق بعيون ناعسة ويتهامسون . . انهم جيل (فكروني) بعاطفيته البريئة المؤذية في مرحلتنا هذه . .

وطلابنا العرب من هذا الجيل ليسوا من جيل (فكروني) ، ولم تعد مطاردة الباريسيات همهم الاوحد . . لقد تقلص كبتهم بعد ان اخذ مداه ، وعاد ليحتل حجمه العادي ومكانه الجزئي . .

هؤلاء بحاجة الى من ينشد لهم ، يرسمهم في لحن وصوت . . . من ؟ . .
وماذا ايضا ؟ . . .

لا شيء ، ما تزال تمطر ، وانا ابحث عن آلة اضع في ثقبها قطعة نقود .

هذه المرة لن اضغط اي زر ، اريد منها ان تنصت لي فقط . . . ساروي لها انه في الصباح سألتني مديرة هذا الهوستل (لانوف) بشك شديد واضح : من اعطاك عنوان هذا المكان ؟ . .

ثم (علمت) من صديقة المانية أن الاسرائيليتين بحالة ذعر وثورة . . وهناك من رمى بالحبر الاحمر على ثيابهما البيضاءالمنشورة في غرفة الغسيل ، فبدت الثياب كما لو كانت ملطخة بالدماء . . ماذا لو قتلتا وهما ترتديانها مثلا !! . .

اريد ان اطلب من الآلة ايضا ان تذهب معي للتفتيش عن غرفة !! . . .

Akhawia.net

١٩٦٧/٧/٧

احمل عاري الى لندن

ربما لانني من هنا اكتب . . .

من سلم الطائرة التي ستحملني بعيدا الى مدينة لم يعد منها عربي منذ اسابيع الا وفي حلقه عشرات الحكايا المجروحة عن اضطهادها له وعدائها . .

ربما لانني ارى منذ الآن وجه موظف الامن في مطارها ينظر الي بشماتة وهو يقرأ في جواز سفري (سورية عربية) ، ووجه صاحب الفندق المتخوف من (همجيتي) ، وزملائي في الصف المتهامسين : هذه واحدة من المئة مليون مهزوم . . .

ربما لانني اعرف انه ليس بين الملايين التي سألتقي بها في المسرح والمكتبة والشارع من سمع حكاية فلسطين الحقيقية من فم عربي ،وان آلاف العيون التي سترمقني باستهتار وشماتة هي نفسها التي سبق ان طالعت صور مذابح دير ياسين منشورة في الصحف الاوروبية على انها صور ضحايا اليهود المساكين ، الذين يواجهون (المرحلة النازية الثانية) من تاريخ عذابهم . . . نازية العرب . . .

ربما لانني واحدة من مئة مليون قضوا عشرين عاما يطيعون حكوماتهم (متعهدة) بناء النصر لهم ، ويدفعون الضرائب التي تنفق على التسليح والاعلام والمؤتمرات والبعثات الدبلوماسية ، واحدة من الصابرين على اي نظام حكم (عثماني) او (مريخي) ، المستسلمين لاية تشريعات منطقية اوغير منطقية ، لاي تجريم سياسي ، لاي تصنيف في درجات (الصوفية الوطنية) مادام ذلك باسم استعادة كرامة الفرد العربي ورد الاعتبار اليه ، الامر الذي يتمثل عمليا في قضية فلسطين . . .

ربما كان من الممكن لو وقف الامر عند هذا الحد ان نصمت ونقنع ونستمر كما كنا ، مئة مليون مخدر دون ان نصرخ في وجه حكامنا الذين زيفوا وجهنا الحقيقي كعرب امام الغرب ، في حربنا الاعلامية طيلة عشرين عاما وفي المعركة الاخيرة . . .

ربما كان من الممكن الاعتقاد ان ما حدث قد حدث لحسن نية ، وانه ناتج عن التخلف ، وعن ، وعن ، وعن ، وعن عشرات الحجج التي تعتبر وسائلنا الاعلامية العربية كلها رائدة لها في قلب باب الهزيمة الى نصر ، وذلك بتحويل حادثة هزيمة الى قضية

Akhawia.net

زمخشرية بلاغية فقط ومن باب تسمية الاشياء باضدادها . .

ولكن مرحلة ما بعد الهزيمة ما تزال امتدادا لها . . .

وتتابع الاحداث منذ وقف القتال الاخير هو بالضبط كتتابعها بعد عام ١٩٤٨ ، والاسلوب الذي يتبعه المسؤولون في مواجهتهم للامور وفي طرحها للشعب اعلاميا يدل على ان العقلية التي قادت الى الهزيمة لم تتبدل . . . وان التاريخ سيعيد نفسه لا محالة . . . لذا صار السكوت جريمة . . . لن استعمل الكلمات الوطنية التي استهلكت حتى فقدت اي مدلول . . لن اقول إنها جريمة في حق الوطن الضائع واخوتنا الفلسطينيين ، سأكون اكثر واقعية ، اقول إنها جريمة في حق انانيتنا الفردية ، في حق دفاعنا عن خبزنا وبيتنا واولادنا وكرامتنا . . فالقضية هذه المرة لم تعد تترك للانهزاميين مجالا للانسحاب وترك (الفلسطينيين) وشأنهم والقول (حوالينا ولا علينا) . . . الحادثة الاخيرة اثبتت ان فلسطين في اذهان ابناء صهيون تمتد من المحيط الى الخليج . . .

ربما لانني اكتب على سلم الطائرة . . . والضجيج التهريجي ، وصور جمع التبرعات والندوات والاناشيد الجديدة واريحية سيدات المجتمع وقفشات اصحاب المعالي ونقاشات المقاهي وتخدير الوسائل الاعلامية وهذه الجعجعة كلها لا تعني الآن لدي شيئا ، ما دمت لا استطيع ان احمل معي منها ما اواجه به العالم الخارجي ، ولانها من بعض الافيون الفكري المطروح للاستهلاك المحلي . . .

الآن تبدو الامور لي اكثر بساطة وفظاعة وابعد مدلولا . . . الفجيعة الحقيقة لم تعد في لحظة الهزيمة اياها ، وانما في لحظة الهزيمة التالية ربما قبل عشرين عاما اخرى ، لان المسؤولين ما زالوا مصرين على سياسة تخدير الجماهير وتجاهل رغباتها الحقيقية والثقة المطلقة بغبائها . . .

الفجيعة الحقيقية هي في استمرار الاساليب التي قادت الى الهزيمة ورفض اعادة النظر في اسلوب العمل ، وانه ليس بالشعر وحده يحارب الانسان .

فمنذ اليوم الاول بدأ تخدير الشعب العربي قبل ان يعي الكارثة ويثور . . .

بدأ التمهيد الاول بتسمية (الهزيمة) (نكسة) ، وكأن الامور كانت تجري على ما يرام ، وما حدث هو مجرد نكسة لا غير !! . . .

وتمت تسمية الهزيمة الثانية لمئة مليون عربي امام مليوني اسرائيلي بكلمة نكسة . . . نكسة لا هزيمة .

نكسة يا اخي العربي في كل مكان . . . نكسة يا امة المئة مليون مخدر ، المئة مليون

Akhawia.net

مهزوم من المحيط الى الخليج ، امجاد يا عرب امجاد طيلة الاعوام الماضية ، وما حدث خلال الايام الثلاثة هو مجرد نكسة . . . نكسة يا كتاب هي الكلمة التي تقرر طرحها في سوق تخدير المواطن العربي . . . حسنا يا سادة . انها ليست هزيمة جديدة ، لانها استمرار للهزيمة التي ظللنا نعيشها باستمرار منذ عشرين عاما . انها ليست هزيمة ان نوقف اطلاق النار ولكنها هزيمة للشعب ان يحدث ذلك بينما كل فرد يتحرق للقتال ، والدولة التي أوجدها اصلا لتنظمه تخشى على نفسها من تسليحه . . .

انها ليست هزيمة بالمعنى الكمي والعددي ولكنها هزيمة الشعوب العربية امام حكامها ، وهزيمة الحكام عن فهم رغبات الشعوب والتعبير عنها . . . (رقابة)

الاسرائيلي مدقوق كالحربة في صدر المسجد الاقصى (رقابة) ، ولكنها هزيمة لان مئتي الف جثة عربية فقط سقطت . وهزيمة لان ذلك قد حدث رغم ان بين المئة مليون عربي من هو على قيد الحياة . . . .

انها ليست هزيمة ستة ايام من الحرب ، ولكنها هزيمة اكاذيب عشرين عاما من استعباد الشعب العربي بحجة الاستعداد للحرب . . .
(رقابة)

لم يعد يهمنا كثيرا ان كان ذلك يجري بحسن نية او بسوء نية المهم ان ذلك يجب ان يتوقف ، توقف مظاهر الحرب الخطابية والاستعراضية كلها . . .

فهي وحدها هزيمتنا الحقيقية . . .

نعم انها ليست هزيمة مئة مليون امام مليونين خلال ايام ثلاثة . . . ولكنها هزيمة الفكر العربي الذي طالما كافح طيلة عشرين عاما ليحذر منها ، انها هزيمة المثقف وانتصار الانتهازي . . . . هزيمة التخطيط وانتصار الارتجالية . . .

نكسة ؟ . . . نعم ،نكسة لحالة الحرب . . . ومن الضروري هذه المرة ان لا نتخدر ،وان لا « تهزم » ذاكرتنا ،وان لا « يهزم » حسنا بالهزيمة . . . ومن اجل ذلك يجب ان نناضل ضد منطقنا الاعلامي التقليدي الذي استطاع ان يجعل من هزيمتنا هزيمة فريدة في تاريخ العالم ،حولها الى نصر ،الى اكتشاف ما سبق ان اكتشفناه عام ١٩٤٨ . . .

وهي ليست هزيمة لانها هزيمتان . . واحدة في الداخل واخرى على الصعيد

Akhawia.net

الاعلامي الديبلوماسي . . . ان اكثر افراد الهيئات الدبلوماسية العربية لا يمثلون سوى وجه الهزيمة . . . ان اكثرهم يجهلون لغة البلد الذي يفترض ان يمثلوا دولتهم فيه ، والمبرر الوحيد لوجودهم هو رغبة الدولة في ابعادهم الى الخارج (على نفقة اموال الشعب) من اجل الحفاظ على (النظام !) . . . وهو في اقطار اخرى مظهر من هزيمة (الحكم) امام المتسلطين والمتنفذين والتوصيات بتعيين ابن البيك الذي يريد ان يسوح موظفا في السلك الديبلوماسي كأن السفارة شهر عسل مجاني . . . آلاف الامثلة التي لا يتسع المجال لحصرها . . .

كلمات اخيرة قبل ان تفوتني الطائرة . . . دفعني حظي العاثر الى الاطلاع على ما دار في مؤتمر وزراء الخارجية العرب . . .

لقد اثبتوا انهم من (السعداء في الارض) اذ ان النكبة التي بدلت اي فرد عربي - حتى الاميين منهم - لم تبدل شيئا من اساليبهم ومواقفهم . . . الامر الذي سيدفع بالشعوب (التي صار وعيها - للاسف - وقدرتها على استيعاب الامور فوق وعي حكامها وانظمتهم المختلفة) ، الى الثورة والى تمزيق الوجوه التي تزيف وجوههم . . .

قبل ان يحدث ذلك . . وكي لا يحدث ذلك . . .

اقترح ان يعين لكل مسؤول عربي سكرتير من الذين شوهت قنابل النابالم وجوههم . . . كي تطالعهم النكبة في كل لحظة ولا ينسون . . .

نحن الذين ندفع رواتبهم ضرائب لا نريد اكثر من ان نختار ممثلينا لديهم . . . ان رؤوسنا من الداخل قد احرقتها النكبة كوجوه اولئك الذين احرقتهم من الخارج .

اوقفوا هذه الاناشيد الحماسية المهترئة ، صارت تذكرنا بتاريخ طويل من الهزيمة ، ومن وهم الحرب . . .

نريد تنظيما وعملا ووقائع . . .

نريد . نريد ان لا يعتبروا المظاهرات المجنونة مظاهر غوغائية فقط . نعم ، انها كما اعتبرها المثقفون (فضيحة) ، لكنها تعبير عن فضيحة اكبر . . . فضيحة الحكم الذي يتجاهل رغبات الشعب الحقيقية . . . ولا ينظم طاقاتها في عمل ايجابي ، فتنفجر هكذا هوجاء مدمرة . . .

واذا ظلت الوسائل الاعلامية العربية كلها مصرة على استغبائنا ، فانني اقترح مظاهرة صامتة من نوع جديد .

Akhawia.net

مظاهرة من المحيط الى الخليج نحمل فيها بصمت كل مذياع لدينا ونسير في جنازة الاعلام العربي ونرمي بها في البحر !!

انه التعبير السلمي الوحيد عن (هجرنا الفكري) لوسائل اعلامنا التي لم تعد على مستوى المعركة وعلى مستوى وعي الفرد العربي العادي . . .

Akhawia.net

لندن ١/ ١٢/ ٦٧

الحـــرب الاعـلامية

ذلك الصباح الحزين ، حاولت ان اشرب بيروت بعيني عن بعد آلاف الاقدام في نظرة وداع اخيرة . ورأسي المثقل بفجيعة الحرب ـ المأساة ، سقط داخل محرك الطائرة المتجهة بي الى لندن . . . ومع هدير الشفرات الوحشية كنت اسمع من جديد عشرات الحكايا عن موقف الاوروبيين العدائي منا خلال فترة الحرب . . . عشرات الحكايا المؤسفة .

(في المطار ، سيقلب الموظف اوراقي ، ثم يصرخ بهلع شامت : عربية . . وبسرعة ، ستكرر الصرخة اصوات اخرى وتتناقلها عبر ممرات المطار وقاعاته الشاسعة كما تتناقل القبائل البدائية صرخات الحرب . سيقفز الموظفون عن مكاتبهم ، ويرمي رجال الشرطة بقبعاتهم ، والمسافرون بحقائبهم ، والمضيفات باقلام حمرة الشفاه ، وسيركضون جميعا متدافعين . يلتفون حولي . تقرع الطبول . تتعالى ضحكات الشماتة والاشمئزاز . وسيدهشهم انني ابدو مثلهم رغم انني واحدة من المئة مليون مهزوم « بدائي نازي » ، امام مليوني ونصف « حمل مسكين » ! . . سيجرونني من شعري في الشوارع ، وعبثا سافتح فمي لاقول لهم اشياء كثيرة . . . لاقول لهم ان هنالك حقائق كثيرة يبدو ان احدا لم يقلها لهم ، وانهم يجهلون مأساتنا ، وان حكايتنا لم تنته الآن ، وانما بدأت . . . و . . . ولن يسمعني احد) . . .

لم يحدث ذلك في المطار .

قلب الموظف اوراقي بلا مبالاة روتينية . قرأ طالبة في جامعة لندن بلا مبالاة . قرأ عربية بلا مبالاة . سألني فقط : كم معك من النقود ؟! . .

ورأيت وجهه يستحيل الى خريطة بريطانيا ، وفوق مدنها تتفتح شفتاه ، تقولان للعالم كله : نقود . . . نقود . . . مصالح . . .

تلك العبارة ربما كانت تلخص ببساطة الموقف الرسمي لاحفاد بلفور سياسيا . . الحقيقة الاولى في قاموس حضارتهم الآلية ذات الماضي الاستعماري هي مصالحهم . . . الحقيقة الانسانية ليس لديهم ما يدعوهم لتجنيد فرقة للبحث عنها وابلاغها لافراد الشعب . . . ولكن ، ماذا عن شعوبهم ، وشعوب العالم كلها ؟ . . .

ماذا عن ملايين الامريكيين الذين تظاهروا ضد سياسة حكومتهم في فيتنام ؟ . . .

Akhawia.net

ماذا عن آلاف الفرنسيين الذين وقفوا ضد سياسة بلادهم في الجزائر لانها ليست انسانية ؟ . . ماذا عن آلاف الاحرار في اقطار العالم ؟ . . . ما موقف الضمير الانساني من الشعب الفلسطيني الذي تتم ابادته باستمرار بلا اي مبرر سوى شريعة الغاب ؟ . . .

عن مهرجان السخرية والشماتة في المطار كنت اتحدث . بالضبط ، عن المهرجان الذي لم يقع . . . ولكن .

طيلة الأشهر الخمسة التي قضيتها في لندن ، كنت ككل عربي هناك اواجه مهرجانا من السخرية والشماتة . . . والجهل التام بحقيقة القضية الفلسطينية ـ العربية . . . وكنت ككل عربي آخر هناك ، اتمزق وانا اسمع صوت اسرائيل محشورا في كل مكان يزرع الاكاذيب في كل مجال . . أما نحن . . يا نحن . . .

حرب أخرى نخسرها باستمرار

قبل ان تقوم اسرائيل بحربها العدوانية ، وبينما كانت تهيىء ادوات دمارها وتحشو بالنيران طائراتها ، كانت ايضا تتابع حربا اخرى مسرحها ليس فلسطين وانما قلوب الشعوب الاوروبية وعقولهم ، انها الحرب الدعائية . .

واذا كانت الحرب العسكرية قد نشبت وانتهت خلال ايام سبعة ، فان حرب اسرائيل الدعائية لم تكف لحظة واحدة قبل ١٩٤٨ وبعدها . . وانما اشتد وطيسها قبل العدوان الاخير لتهيئة الجو النفسي لدى الاوروبيين ، وبلغت ذروتها خلال الحرب وخلال الاسابيع التي تلت العدوان . . .

واذا اختلفت الآراء حول اسباب خسارتنا للجولة العسكرية الاخيرة ، فان سبب خسارتنا الدائمة للحرب الدعائية المستمرة لا يحتاج الى تحليل : انه ببساطة هو اننا لم نخضها . واننا لا نعيها . واننا رغم صحونا الاخير والتفاتنا الى تقوية نقاط ضعفنا العسكرية ما نزال نهمل تماما حربنا الاخرى ونجهل اهميتها ومدى خطورتها . .

تلك الحرب الاخرى التي لم تكف لحظة واحدة منذ ١٩٤٨ ـ وقبل ذلك ايضا !ـ والتي مسرحها قلوب ملايين من افراد الشعوب الاخرى وعقولهم ، لم نعد لها شيئاً حتى اليوم ، ولم يبد في سياسة اية دولة عربية ما يدل على وعي خطورة تخلفنا الدعائي ، او اية نية عملية لمواجهة اسرائيل في هذا الميدان الفكري والانساني ، رغم صيحات العديد من المثقفين وتحذيرهم من نتائج هذا الاهمال .

قبل الحرب العدوانية الاخيرة ، كنا نمر بمظاهر الدعاية الاسرائيلية بما يشبه الاستخفاف ، والدهشة من وقاحتها في تزييف الحقيقة ، واحيانا بالغضب والمرارة . . .

Akhawia.net

كان في اعماق كل منا ايمان فطري بان الحقيقة ربما ولدت خرساء ولكن لا يمكن طمسها ، وان منطق التاريخ هو دوما بالنتيجة مع الحق لا مع القوة . .

حتى كانت الحرب الاخيرة ، حيث بدت مظاهر تحيز الشعوب الاوروبية ـ حتى الشعوب ـ الى اسرائيل بشكل واضح وعلني بعد ان كنا نظن ان الامر مقتصر على محترفي السياسة الاستعمارية من الخبراء في امتصاص دماء الشعوب . .

ولم يعد بوسعنا ان نمر بمظاهر الدعاية الاسرائيلية الفعالة بذلك الاستخفاف القديم بعد ان حصدنا نتائجه ، كما ان ايماننا العتيق بان الحقيقة ازلية وخالدة تبدل الى يقين بان الدفاع عن الحقيقة هو ما يجعلها ازلية وخالدة وان من اهم مظاهر الدفاع عنها هو ايضاحها . . .

بعد الهزيمة ، صار للدعاية الاسرائيلية طعم آخر . . صار اي طالب او تاجر عربي في اوروبا يصطدم بها ، يعي خطورتها ويحس امامها بما يحسه جندي في ساحة معركة يعرف ان الرصاص ينهار عليه من كل جانب ، وهو اعزل . . .

والكلمة التي كانت من معجزاتنا العربية ، نعجز اليوم عن ايصالها ، وتقف عقول مسؤ ولينا قاصرة عن ادراك مدى خطورتها . . . واذا كنا جميعا هنا نعرف حكاية الحرب الاخيرة لحظة بلحظة ، واذا كانت عشرات الصحف قد ابدعت في وصفها وشرحها ، فان هنالك صفحات مطوية عن الحرب الاخرى (الدعائية) والهزيمة الاخرى ما يزال هنالك المزيد ليقال عنها . .

قبل ان تنشب الحرب الاخيرة العسكرية ، وبينما كان الموقف العربي ـ الاسرائيلي ينذر بالانفجار ، اضيئت واجهات مخازن « سلفريدج » الثلاثون بمناسبة اسبوع اسرائيل . .

ومخازن سلفريدج تقع في قلب لندن ، وهي من اوسع متاجر اوروبا واشهرها . . .

ورأينا يومها نجمة اسرائيل تضيء جدران المخزن المطل على « شارع اوكسفورد » ، اهم شوارع لندن التي لا بد ان يمر بها اي سائح ، ورأينا يومها سيوفنا العربية تباع باسم اسرائيل . . . وفنوننا في النحت والزخرفة ، وخشب زيتوننا وبرتقالنا يباع باسم اسرائيل . . .

وقرر بعض الطلاب الاخوة العرب : سوف ننسف سلفريدج . . .

وكالعادة ، لم يحدث شيء ، وباعت اسرائيل حضارتنا للعالم على انها حضارتها . .

Akhawia.net

هذا ، عـدا آلاف الكراسات التي كانت تـوزع ، الحفـلات الدعائيـة التي كانـت تقام ، وكل ما فيها يهدف الى اثبات شيء واحد : ان اسرائيل هي وحدها أمل الحضارة الانسانية في تلك البقعة الهمجية البدائية من العالم والتي تدعي بلاد العرب . . .

انتحارنـا الدعـائي

ربما كانت اقسى الاسلحة الدعائية التي صوبتها اسرائيل نحو صدورنا من صنعنا نحن . . .

الحقيقة مفجعة . . اقسى ما فيها هو انه لا مفر احيانا من ان نقولها . .

ان ضيق نظرنا الدعائي ، وهوسنا الغوغائي ، باية كلمة تصور عداءنـا لاسرائيل مهما بلغت من السـطحية ، وتسليم شؤ ون الاعـلام الى ايدي الموظفـين وابعـاد اكثـر الاصيلين ، جعلتنا نظهر امام العالم بمظهر المعتدين المتحاملين اللا إنسانيين . واستطاعت دعايتهم الذكية ـ ولكن المجرمة ـ الانتصار على صخبنا العادل ـ ولكن الاهوج ـ .

ولما كان اكثر ما في صحفنا ينشر للاستهلاك المحلي ، لاستهلاك افراد قانعين بعدالة قضيتهم بغض النظر عن اي اعتبار آخر ، لذا وجدت اسرائيل فيما تخطه صحفنا مادة خصبة لاثبات (نازية) العرب ، وبالتالي دغدغة عقدة اوروبا امام اليهود . . .

كمثال من عشرات الامثلة التي يمر بها اي عربي تابع الصحف هنـاك ، اقتطـع صفحـة من الصنـداي تلغـراف عدد ٢ تمـوز ١٩٦٧ . . . العنـوان يقـول : « كل الكاريكاتورات العربية كانت مصممة لبث الكراهية ضد اسرائيل ! » . . .

أكتفي بترجمـة مقاطـع من المقـال دون تعليق : « في مدرسـة مهجـورة في غزة ، اكتشفت مقاطع من اسئلة حسابية تتضمن هذه المسألـة : ثلاثـة من العـرب الفـدائيين واجهوا اثني عشر اسرائيليا . قتلوا ثمانية منهم .كم بقي من الاسرائيليين ؟ » . . .

لا مفر من ان اعلق ! نعم . اننا نربي اولادنا على كراهية اسرائيل كما كان يمكن للانكليز انفسهم ان يربوا اولادهم على كراهية اسرائيل فيما لو اقامت دولتها في مقاطعة ويلز بانكلترا مثلاً . وكان من الممكن ببساطة ان نقرأ المسألة الحسـابية نفسهـا في اي كتـاب انكليزي . المأساة هي اننا عجزنا عن ايضـاح ذلك لهم . .عجزنـا عن ايصـال صوتنـا اليهم ،ـ صوتنا النازف كبرياءـ مما جعل الدعاية الاسرائيلية تتخذ من كلماتنا ما يدمغنا بصفة المعتدين اللاانسانيين . . .

وفي الوقـت الـذي كانـت فيه دعايتنـا الاذاعية العثمانية الاسـاليب تهـزج : سندمر . . . سنحرق . . . سنقتل . . كانت اذاعة اسرائيل اللئيمة تحدث العالم بمنطق

Akhawia.net

القرن العشرين ، وكانت تذيع باختصار : رغم غارة العرب على القدس ومقتل مئة اسرائيلي فقد وضعت امرأة طفلها بسلام وسمي اسرائيل !!

لحظتها رأيت عشرات الاطفال العرب يموتون طيلة عشرات من الاعوام في المخيمات ، في برد الشتاء ولهيب الصيف ، ومع ذلك لم يسمع أحد بهم . . ورأيت احزاننا وعدالة قضايانا تكبر عاما بعد عام ، بينما تذوي قدرتنا على ايضاحها للعالم الغربي بلغته . . . فلقد كنا افشل محامين لاعدل قضية .

سؤال آخر ، لا مفر من توجيهه الى وسائل الاعلام العربية باكملها : لماذا منعت الصحف الاجنبية من الدخول الى بلادنا ؟ . . أليس من حق المواطنين ان يعرفوا بالضبط موقف العالم الخارجي منهم ؟ . . من تحاول الرقابة ان تحمي ؟ . . . افكارنا من اكاذيب المعتدين ؟ . . وهل بين العرب انسان واحد يشك بعدالة قضيتنا ؟ . . .

بمرارة ، تساءلت ، بصوت كان يوما بعد يوم يشتد مرارة وحنقا وفجيعة ، كلما رأيت مظهرا جديدامن مظاهر دعايتهم المتقنة . . .

حكاية اسرائيل

منذ اللحظة الاولى كانوا هناك . . . ففي الباص الذي اقلني من المطار الى لندن ، واجهتني اللوحة الاولى من صور دعايتهم العدائية . . .

اعلان عن فيلم اسموه : « تاريخ اسرائيل » . . . تمثيل : النجم (المحبوب) توبول . . .

وبعد ايام ، كنت اقف امام باب اكبر دار للسينما في حي « هولبورن » الذي يتوسط لندن ، لاحجز مقعدا في فيلم حكاية اسرائيل . . . وكان تهافت الناس لمشاهدته لا يصدق ، ولم لا ، وعلى جدران الشوارع ، وفي دهاليز المترو ، الصقت الاعلانات المناسبة ؟ . وأهل لندن ، اكثرهم ، يجهلون كل شيء لا يمت بصلة الى فراشهم وطبقهم وبوليصة تأمينهم ، وهم راغبون في سماع انباء تلك الحرب الاخيرة بين اسرائيل (المتحضرة) واقوام الف ليلة وليلة !

وخلال عرض الفيلم ، شاهدت للمرة الاولى ظاهرة مذهلة ، اذ لم اكن لاصدق ان التاريخ يمكن ان يشوه بهذا الاتقان ، وان الحقيقة يمكن ان تزيف بهذه البساطة وبذلك الذكاء الشيطاني . . .

وحينما خرجت من دار السينما ، مغمومة حتى الذل ، وشاهدت مظاهرة انكليزية خرج افرادها ضد سياسة الدولة في فيتنام ، وضد سياسة اميركا الرسمية هناك ، ادركت

Akhawia.net

لماذا لم تخرج هذه المظاهرة بالذات ضد إقامة اسرائيل في فلسطين ،ومع كفاح الشعب الفلسطيني المناضل . .

كان افراد المظاهرة يسيرون بالطريقة التقليدية ، بصمت . برؤوس منكسة وشعارات مكتوبة مرفوعة ، يحيط بهم رجال البوليس ويغسل المطر كل شيء . .

وتمنيت ، تمنيت لو ان العرب طبعوا كراسات صامتة ، بدون تعليق ، كراسات تحمل صور ضحايا الاسرائيليين ، ضحايا النابالم والحقد والعداء ، ـ الصور فقط تكفي . لاركض بين افراد المظاهرة ، وازرع في ضمير كل منهم كراسا وصورة على الاقل . . . ولكن .

ولكـــن

ولكن ، في الاسبوع نفسه ، نشرت الصحف انباء فيلم جديد صوره التلفزيون في احد الاقطار العربية ، واسمه : وداعا يا بلاد العرب . .

مخرج معروف ذهب في رحلة لتصوير فيلم عن اقوام الف ليلة وليلة ، وحكاياتهم الاسطورية ، وقد فوجيء بان تلك القبائل (!!) العربية كفت عن العيش في الخيام ، وبان لديهم اليوم مدناً وحضارات كأقوام العالم كافة ، ولذا بدل موضوع فيلمه الى موضوع واقعي يصف تغير هذه الاقوام وواقعها الجديد ، وكان لا مفر من تسمية الفيلم بـ « وداعاً يا أرض العرب » يا ليالي ألف ليلة وليلة .خبر صغير نشرته الـ« ايفننغ ستاندرد » و « الايفننغ نيوز » وغيرها ، له خطورته ومدلوله ، اذ انه يعبر عن مدى نجاح الدعاية الاسرائيلية في تشويه صورتنا في اذهان شعوب اوروبا واقناعهم باننا ما زلنا قبائل الف ليلة وليلة ، خيام منصوبة وعذارى مسلوبة وجهل تام بالقيم الانسانية والحضارة ! ترى هل كان الامر صدفة ، ام حلقة من حلقات التضليل الاسرائيلي ؟

حتى صلاح الدين اغتالوه

وهل هي مصادفة أيضا، وفي هذا الوقت بالذات ، ان توجه الدعوة الى بعض العرب المقيمين في لندن ، لحضور حفل العرض الاول لفيلم صلاح الدين الايوبي الجديد ، حصيلة انتاج انكليزي عربي مشترك ؟ . .

وهل هي صدفة أن نرى بعض الممثلين العرب ينطقون بالانكليزية كما يستعمل اثرياء الحرب الشوكة والسكين ؟ وهل هي صدفة ان يستحيل البطل العربي الكبير في الفيلم الى موظف صغير عاشق يقود حملة من اجل انقاذ امرأة اوروبية يزوجها لسواه ؟! هذا كل شيء . . اي تشويه للتاريخ ، واية عملية (ريجيم) للطموح العربي . . .

Akhawia.net

وطبعا سوف يعرض الفيلم الجرثومة على شاشاتنا ، وينزلق من بين اهداب واصابع رقابتنا التي لا تمنع الا ما يجب ان يقال بصوت عال ، وبصراحة ، وبلا مداورة . . مثلا . . . الاعداد السبعة الاخيرة من مجلة « وومنز أون » الانكليزية نشرت في قصتها المسلسلة حكاية فتاة اسرائيلية تقع في حب شاب عربي ثم تهجره في النهاية لانه دون مستواها الحضاري . . وقد سمح بتداولها في اسواق بيروت . . . وما تزال . . .

بالصمت الرهيب

. . . حتى هوايتي المحببة في لندن ، وهي التسكع امام واجهات المكاتب ، استحالت نوعا من العذاب المرير . . ليس سرا ان اقول : تم طبع ٢٠ كتابا حول الحرب العربية الاسرائيلية الاخيرة باللغة الانكليزية ، وتم توزيعها وكلها يتصدر واجهات المكاتب في لندن .

اخص بالذكر كتاب ابن تشرشل وحفيده لما لتشرشل من محبة واحترام في قلوب البريطانيين . . ولا حاجة بي للقول طبعا بان هذه الكتب كلها تتحامل على العرب وتزيف التاريخ . . . تفاصيل الكتب لا تهم . . .

كلها تدور حول حبكة واحدة . .

« الشعب اليهودي المسكين المشرد منذ ايام الفراعنة ، يعود الى ارضه الموعودة في الكتب السماوية ، ويحارب العرب البدائيين كي يعلمهم الحضارة والرقي ، ويكون منارة القرن العشرين في عوالم ألف ليلة وليلة وقبائل البدائية والجهل ! » . . .

واعترف بانني عجزت عن كبت رغبتي في تمزيق اكثرها ، واحتفظت ببعض الامثلة منها ، مثلا : تلك الصورة التي نرى فيها مشهدا مزيفا لاسرائيلي يركع خاشعا امام صورة خيمة عربية اتخذت اثناء الحرب من شاهد قبر اسرائيلي عتبة لها ! . . . ما لم تذكره الصورة ان وحشية الاسرائيليين في الحرب الاخيرة تخطت عتبات بيوت الاحياء ، ولم توفر حتى بيت المقدس . . . وما لم تذكره الصورة ايضا ان خيام اللاجئين كانت في الايام الاخيرة هدفا لقنابلهم المحرقة . . . وان حائط المبكى الذي نراهم في صورة اخرى يتباكون امامه ، صار يحق لنا ان نبنيه من المحيط الى الخليج لنبكي ضحايانا ، ولنبكي القيم الانسانية المهدورة . . .

حتى المجلات

وتم ايضا شراء اعداد خاصة من كبريات المجلات الانكليزية ، واصدارها لحساب الاكذوبة الاسرائيلية . . . من ابرز الامثلة ، « الايكونومست » التي صدرت في السادس

Akhawia.net

عشر من حزيران بعنوان « عملوها ! » . . . وبصورة لدبابة اسرائيلية تقتحم الحدود العربية . . .

اما « التايمز » فقد ذهبت الى ابعد من ذلك ، واحتفلت بالمناسبة باصدار عدد خاص حول ما اسمته بـ « حرب حزيران ١٩٦٧ المقدسة » وبيع العدد بجنيه ، ورصد ريعه لاغاثة منكوبي الحرب الاسرائيليين ! .

فيلـــم حـــي

وايضا ،

بعد الحرب بأيام عشرة ، عرض في احدى الصالات الكبرى في « بيكاديللي » فيلم تم تصويره من المشاهد الحية اثناء الحرب الاخيرة . . . وطبعا لم يكن فيه مشهد واحد من حقيقة ما يدور ، ضحايانا ، اغتصابهم لارضنا . . .

وأيضا ،

صفحات الاعلان في التايمز والاوبزرفر لم تكن تخلو من الدعوة لمحاضرة او من مناقشة حول قضية « شعب اسرائيل » . . .

اما نحن ، يا نحن . . .

Akhawia.net

لندن ١٥/ ١٢/ ٦٧

الكشتبان الذهبي

إذا كان علي ان اصف دعايتنا هنا ، بعيداً عن العاطفة والمجاملة ، فانني استطيع ان الخصها بعبارة : وهم العمل ، ـ ان لم اقل : مهزلة ـ .

وخطة المصارحة التي اتخذناها سلاحاً للبناء بعد هزيمة حزيران ، والتي بدأت تؤتي أكلها ، هذه الخطة تفرض علينا ان نقول الشيء الكثير . . .

تقليعة موشي ديان

بعد الهزيمة باسابيع قليلة . . كان يوماً مشمساً ، وكنت ما ازال شريانا مقطوعا ينزف . حزينة كالرمح المكسور . يدهشني كل صباح ان الشمس ما تزال تشرق . ولانه كان يوماً مشمساً ، خرج اهل لندن كلهم من بيوتهم ومن ثيابهم ، وتمددوا على حشائش الحدائق العامة باسترخاء . . اما المحافظون ، فقد اكتفوا بالسير في الشوارع عراة الاقدام . . .

احسست يومها انني اعيش في العصر الحجري ، عصر الذرة الحجري ، وازداد ذلك الاحساس حدة اذ ظهر اكثر الشبان ـ بالاضافة الى عريهم ـ في تقليعة جديدة : تقليعة موشي ديان . . . عصابة سوداء على احدى العينين كما يفعل موشي ديان ، والقراصنة . كان هنالك من يبيعها في ساحة التقليعات (البيكاديللي) بسعر زهيد . وحينما تحدثت الى بعضهم ، تأكدت من امر واحد : انهم لا يعرفون شيئاً عن حقيقة العرب وعلاقتهم بفلسطين وشعب فلسطين الجريح ، ولا يهمهم كثيراً اي شرح علمي مطول . . . ودعاية « اسرائيل » التي تعمل على المستويات كافة عرفت حتى كيف تتسلل الى قلوب ابناء التقليعات بتقليعة اسرائيلية . .

وكانت ترافقني يومها وتشاركني في النقاش اخت عربية من دولة شقيقة غير الدول المحيطة مباشرة « باسرائيل » (سوريا ـ لبنان ـ الاردن ـ مصر)وقد سألها احدهم بدهشة صادقة : وانت ، ما دخلك في الامر ؟! . .

لذا ، في المساء ، حينما دعاني بعض الاصدقاء العرب لحضور عرض لفيلم مصري ، يكون شاهدا على تقدمنا الفني ، ويرصد ريعه لاغاثة اللاجئين ، غمرني فرح

Akhawia.net

حقيقي . .

ولم أسأل من نظم حفلة العرض . . الاسماء لا تهمني . . . ما سيدور هو وحده ما يعنيني . . .

ومنذ البداية ، حز في نفسي مكان عرض الفيلم ، فقد ذهبوا بي الى سينما صغيرة جدا وثانوية جدا في منطقة (نوتنغهيل جيت) ، في حين يعرض الفيلم الاسرائيلي في (هولبورن) قلب لندن وفي احدى كبريات دور العرض. ولكنني غالبت هذا الشعور وقررت : المهم ان نبدأ ، ان نجمع شتاتنا ونعمل .

ثم علمت انها حفلة عرض واحدة (الفيلم الاسرائيلي ظل يعرض طيلة اشهر ثلاثة) .

ومع ذلك قررت « ان اشعال شمعة واحدة خير ألف مرة من لعن الظلام » ، وتلفت حولي احصي المدعوين الاجانب متمنية ان يكون عددهم كبيراً . . واغبط نفسي لانهم سيرون شيئاً ما ينم عن رقينا . . .

العيـــب

وكانت المفاجأة المؤسفة حين عرض الفيلم . . .

كان فيلم « العيب » فيلم عتيق من بطولة فاتن حمامة . . . وكان عرضه « عيبا » في لندن بالذات ، وفي هذه الظروف ، ولتلك المناسبة . . .

احداث الفيلم كلها تدور في الريف المصري قبل الثورة ، وتبرز الجو اللانساني من الجوع والفقر والمرض الذي يعاني منه الفلاحون وضمن هذا الاطار تتحرك فاتن حمامة ، الفلاحة الجميلة ، ويغتصبها رجل ما بينما هي متزوجة ، وتحمل ، ونقضي الفيلم مع المتفرج الاوروبي ونحن نلاحقها ويشاركنا المطاردة اهل القرية منذ اول الفيلم الذي يفتتح بجثة طفل وليد مخنوق ومرمي في الغيطان . . . ونختتم الفيلم بصراخ وزعيق فاتن حمامة (سولو) بعد ان شاركها كورس القرية في الزعيق طوال الفيلم . . ورغم ان في الفيلم محاولة مستمرة لرفع هذا الموضوع العادي والتقليدي للسينما المصرية الى مستوى فني فيه شيء من الجدة والخلق ـ تصويرا واخراجا ـ الا انه بينما تهبط الستارة ، يقول الراوي بصوت تقريري مسرحي : كان هذا حال مصر قبل الثورة ، ثم جاءت الثورة . . . وتبدل الحال . . . نعم تبدل الحال . المفروض ان يشاهدوا كيف تبدل ، لا ان نقرر لهم ذلك خطابيا . . .

المهم ، طوال عمرنا ونحن راضون بفظاعة السينما العربية بصورة عامة ، على امل

Akhawia.net

ان تكبر ، وهذا الفيلم أفضل بكثير من سواه ، ولكن عرضه فى هذا المجال يدل على سوء تقدير لا حدود له . . .

فمن نكات الفيلم المفضلة ، مشهد الباشا الذي يضرب خادمه على وجهه كلما حيره امر جثة الطفل الوليد . . . المفروض انها نكتة . . . وقد اعتدنا ان نضحك على مثل هذه الحركات التهريجية ، لكن المتفرج الاوروبي لا يستطيع ان يرى في المشهد سوى جنحة واهانة انسانية ومن المفروض ان يقاضي الخادم سيده ويطالبه بتعويض لاهانته ، فالخادم هناك موظف ، ويتقاضى راتبا محترما بالاضافة الى تمتعه بالحقوق الانسانية التي يتمتع بها كل مواطن . .

ثم مشكلة الفيلم الاساسية لا يستطيع المتفرج الاوروبي ان يعيها اذ ان (العلاقات الجنسية ونتائجها) لا تشكل لديه مشكلة بالطريقة التي تشكلها لدينا . . اي ان اسلوب نظرته الى الجنس (والحمل سفاحا) وعلاقة المجتمع بذلك يختلف تماما عن نظرتنا ، وبالتالي فهو عاجز تماما عن تحسس مشكلة الفيلم ، والفيلم لا يفعل شيئاً لايضاح جذور وجهة نظرنا بشكل يجعل جدة النظرة وغرابتها مثيرة للمتفرج الاوروبي ، وانما على العكس ، نجد التفسير الوحيد الذي يرد به على فضول الاوروبي هو زعيق فاتن حمامة طوال الفيلم .

وقد خرجت يومها من قاعة السينما فرحة لانها صغيرة ، ولان العرض لم يدم سوى ليلة واحدة ، ولان عدد المتفرجين الانكليز كان قليلا جدا ، وغاضبة حتى الانفجار من سوء التصرف هذا . . ففي الوقت الذي تنجح فيه الدعاية الاسرائيلية حتى على مستوى التقليعات نفشل نحن في تنظيم امسية واحدة صغيرة ومحدودة . . .

ورغم ان القصد من الدعاية العربية في اوروبا هو الوصول الى قلوب وجيوب الاوروبيين اولا لا العرب ، مع ذلك سررت ليلتها لان اغلب الحضور كانوا من العرب ! . .

وحينما التقينا امام باب السينما حول احد المسؤ ولين عن تنظيم الامسية ، كانت اجوبته تثير مزيدا من حزننا ، اذ كانت تلخص المنطق الذي كان سائدا قبل النكسة (انتم العرب تنتقدون كل من يعمل . . . لا لم يشاهد احد الفيلم قبل عرضه . . . لقد طلبناه من القاهرة ، وجاءنا من المسؤ ولين) ثم سألنا بلهجة شبه تهديدية :(الا تعرفون من اشرف على هذا كله ؟ وذكر لنا اسم ملكة عربية سابقة) . . .

الذى اعرفه هو ان عرض هذا الفيلم في اي بلد اوروبي غير ضروري وكان من

Akhawia.net

الحكمة استبداله بسواه . إلا على صعيد المهرجانات السينمائية لا السياسية .

والذي اعرفه هو ان هذه الحادثة بالذات جعلتني افتقد تنظيما (رسميا) في دعايتنا العربية ، لاتفاهما (عشائرياً) كما هو حاصل . . . في حالة التنظيم ، يكون هنالك مسؤول ، ونظام واضح للعمل وخطة موحدة ، ورصيد مالي . . . وامكانية النقد دون تجريح للأشخاص ودون منة منهم علينا . . .

اننا بحاجة ماسة الى الوضوح ، والى النظام ، والى تناسق القوى العاملة بدلا من تصادمها الذي يؤدي غالبا الى تقوقع الكثيرين استياء من اسلوب العمل رغم ايمانهم باخلاص القائمين عليه . . . كما ان ذلك ايضا ينقذ الكثيرين من خدر الاحساس (بوهم العمل) . . . اذ انه ليس المهم ان نتعب وان نقنع انفسنا باننا قمنا بعمل ما ، المهم ان نصل الى النتيجة المرجوة قوميا دون ان نبدد طاقاتنا في شرود استعراضي لا مبرر له الا ارضاء غرورنا الفردي . .

ولا شك في « ان اشعال شمعة خير ألف مرة من لعن الظلام » وحتى (محاولة اشعال شمعة) خير ألف مرة من لعن الظلام ، ولو احرقت المحاولة بقايا اهدابنا ، ولكن خير من هذا كله ان نفهم لماذا احرقت اهدابنا ونتجنب ذلك ، وان نفكر خلال اشعال شموعنا بكيفية تبديد الظلمة نهائيا ، وكيف نلهب من جديد شمس حضارتنا وسيادتنا . . . فالايام تسير بسرعة . . . وهم يعملون بسرعة . . . بحذق . . .

ننشده دون أن ندري

ان النشيد الوطني الاسرائيلي صار على كل شفة ولسان دون ان يعرف اكثر الناس انه نشيد « اسرائيل » . . . وربما سمعه اكثرنا في مقاهي اوروبا ومطاعمها ، تعزفه الاوركسترا وينشد معه الساهرون والشاربون دون ان ندري . . .

اذ بعد خروجنا الغاضب ، عرجنا على اول مطعم نتابع نقاشنا ، ونظر الينا الزبائن بعيون حالمة مدهوشة ونحن ندخل سحابة من الصراخ والحماس ، ونفسد عليهم الاستماع الى عازف البيانو المنفرد . . . كان يعزف اغنيات اوروبية شعبية معروفة ، ويشاركه الحاضرون في الغناء . . وبعد قليل ، انتهى نقاشنا اذ اتفقنا ان ليس من العدل ان نسكب غضبنا الكبير لهزيمتنا الكبيرة على حوادث جزئية فرعية وان الانسحاب خطأ كما ان الصمت عن النقد خطأ . .

وفي محاولة مني لتغيير موضوع النقاش ، التفت الى جيراني على المائدة المجاورة ، اسألهم عن اسم اللحن الذي ينشده الجميع ـ وقد ميزت فيه لحنا سمعته مؤخراً بكثرة

Akhawia.net

وبصورة خاصة في مطاعم باريس - واجابني صوت : انه النشيد الاسرائيلي . . . جميل . . . أليس كذلك ؟ ! . .

لندن بعد النكسة

واذكر انني عشت الاسابيع التالية ، تمزقني رؤ يا جديدة للندن . . . صرت حذرة وعدائية وبدأت ارى الاشياء في ضوء جديد . . ساحاتها الواسعة الجميلة ، حدائقها ، متاحفها الرائعة ، مسارحها النابضة ، مستشفياتها العملاقة ، كل هذا صار يذكرني بالذهب المسلوب من شعوب اخرى ، وصرت احس امامه بالخجل امام تحف مسروقة . . .

حتى مسلة كليوباترة المنصوبة على شاطىء التايمز والتي اهديت منذ حوالى مئة عام الى لندن ، ونصبت هناك ، صرت احزن حين امر بها .

وذات ليلة ، سمعت احد المذيعين يتحدث عنها ويقول ان طقس لندن لا يناسب (المسلة الاثرية) ، وانها خلال مئة عام في لندن لقيت من الصقيع والمطر ما افسدها اكثر مما حدث لها طيلة ثلاثة آلاف عام في الصحراء المصرية مسقط رأسها . . . وحزنت من اجل (المسلة السليبة) ، وحلمت ليلتها بانني وآلاف الايدي نقتلع المسلة لنطير بها الى الصحراء . . .

وحتى نهر التايمز الذي طالما احببت حمرته الشاحبة حمرة الغروب واضواء الاعلانات على جانبيه ، بدأ يساورني شعور موجع بان دماء عشرات الشعوب التي اضطهدت طيلة سنين هي التي تسير فيه . . . وتلونه . . .

الكشتبان الذهبي

وكنت مغرمة بالاشياء الجميلة في حي (الماي فير) ، مغرمة برؤ يتها ، اشعر انني بحبي لها امتلكها وهي خلف الواجهة في لحظة ، اكثر مما يمتلكها اي مشتر لامبال بدقة فنها . . وحتى الاشياء الجميلة صرت اراها من زاوية جديدة .

كان هنالك (كشتبان) ذهبي في دكان احد الصاغة ، صنع بدقة مذهلة ، كان قطعة فنية قائمة بذاتها ، وكنت كلما ذهبت الى لندن اذهب خصيصاً لرؤ يته ، واضحك للفكرة : المرأة التي تستطيع ان تشتري (كشتباناً) من الذهب لا بد ان تكون ثرية الى حد انها لن تستعمله ابداطبعا . . . اي مهزلة . . . ثم كنت انسى ذلك كله امام جمال (الفن للفن) . . . جمال النقوش الذهبية حتى ولو كانت على كشتبان . . .

لكنني هذه المرة احسست بالذنب وانا اقف امام الكشتبان الذهبي . بالغضب .

Akhawia.net

رأيت ملايين الايدي المرتجفة تزرع الخيوط في القماش في عتمة الليالي واصابعها المعروقة تنزف تعبا وارهاقا ، وفقدت القدرة على رؤ ية نقوشه ، رأيت فيه ذروة (البطر) وعدم وعي الصائغ باي معنى للالتزام الانساني . . . وانها جريمة ان يصنع فنان شيئاً كهذا بينما يموت ملايين الناس في الهند جوعا ، ويموت آلافهم في بلادي تحت الخيام تشردا واضطهادا واستغلالا . . .

كانت فترة غريبة من حياتي صرت فيها عدائية حتى الاحتقار لاي جمال فني ما دام ناتجا عن موقف استغلالي او نتيجة لاضطهاد اي فريق من الناس أو اي شعب . . .

حتى جواهر التاج البريطاني الذي تتوسطه اكبر ماسة في العالم واسمها نجمة الهند وهي جميلة وساحرة واحبها كأنثى . . . تمنيت لو تختفي ذات ليلة من قفصها الزجاجي في برج قلعة لندن حيث تحرسها فرقة اسطورية من المعدات الالكترونية والجنود التقليديين ، ثم يجدها الناس ذات يوم داخل عين نبي جديد يمنح (الانسان) الممزق طيلة آلاف السنين ، سلاماً وعدالة ومحبة .

وفي واجهة محلات (هارودز) حيث تشتري الملكة واثرياء اوروبا والعرب ثيابهم ، رأيت من جملة ما رأيت ، رجلا وسيما (تمثال رجل لعرض الثياب) وقد وقفت عاملة تزيين الواجهة تضع عليه معطفا من الفرو وعليه الثمن ـ الف جنيه ـ ثم قبعة من الفرو ايضا وثمنها مائتا جنيه !! . . . وشعرت بشيء من الاشمئزاز وبرغبة غريبة في ان اطلق النار عليه !! . . كيف نصنع شيئاً كهذا وفي العالم انسان واحد يموت بردا ؟

أدب « الكشتبان الذهبي »

وصارت الاحداث تتساقط بسرعة على عيني . ربما صارت لدي حساسية خاصة لالتقاطها ، وبالتالي اشتد وعيي بها وزاد الالم توترا . . . كانت الاشياء تلاحقني كيفما تحركت . . .

في المطعم ، البرتقال يحمل اسم (يافا ـ اسرائيل) . . في البريد ، هدية من صديق فيها الكتاب الجديد الذي صدر مؤ خرا لشاعر لبناني كبير جدا كنت اتذوق شعره واعجب به كثيراً ، وعجزت هذه المرة عن اكمال قراءته . . كان ينتمي الى عالم آخر غير عالمنا المتوتر المفجوع الحائر . . مجرد كلمات جميلة جدا متقنة النحت ولكنها بعيدة عن عصرنا وعن قلوبنا . . لا يحمل في طياته العطرية ولياليه المحذلقة شيئاً من نزف ليالينا أو جوابا على اسئلتنا . . . كان كالكشتبان الذهبي الذي رأيته في مخزن الصائغ . . . وكان احساسي امامه بالضبط كاحساسي امام الكشتبان الذهبي . . هذا الكلام الذهبي المنحوت بمعزل عن

Akhawia.net

صراخ الجماهير في الشوارع ومآسيها ، وكل ما استطيع ان اقوله هو اننا لم نعد نريده . . لم نعد نتذوقه . . . ونرفض تخدير (ما فيه من الجمال) لوعينا بما (في العالم من القبح) والظلم . . . ونريد الحقيقة . . .

في الجامعة حيث أدرس ، اهداني استاذ عربي مثقف فعلا ، اهداني باعتزاز كبير النسخة الاولى من كراس كتبه بالانكليزية حول شاعر جاهلي اتم تحقيق شعره واظهر ما بطل من اكاذيب الرواة فيه ! . . . لم اقل له شيئاً اذ كان لدي الكثير اقوله . . .

ثم ، حتى لو اراد ان يكتب حول شيء آخر ، حول مأساة فلسطين مثلا ، حول شعر محمود درويش الشاعر الفلسطيني الكبير السجين في « اسرائيل » ، حتى لو اراد ذلك ترى هل كانت مطبعة الجامعة ترضى بنشره ؟ . . . ولو تحدى ، ماذا يحدث له ، وهو الفلسطيني الاصل ، الشريد ؟

أمجاد يا عرب أمجاد !

وحتى نادي (البلاي بوي) اي (الدونجوان) الشهير ، القائم في افخر احياء لندن مقابل الهايد بارك ، اذكر انني ذهبت اليه قبل الهزيمة فأثار غضبي (كأنثى) لأن مضيفاته شبه العاريات يرتدين ثيابا لها (اذناب) صغيرة مثل الارانب ، وقبعات لها آذان بشكل آذان الارانب . . . احسست في ذلك نوعا من التشويه غير الانساني لشكل الانثى ، وعرضها عمليا بصورة حيوان أليف كثير التوالد هو (الارنب) . . . وقررت انه ليس في نادي (البلاي بوي) كله بلاي بوي واحد حقيقي ، لان الرجل الحقيقي لا ترضي رجولته غزوات في كهف نساء ارانب . . يدخله ببطاقة على شكل مفتاح كرتوني ويدفع ثمن هذا (المفتاح) مقدما . . .

اما بعد الهزيمة ، حين مررت بباب (البلاي بوي) لم اذكر من هذا كله سوى ان اكثر زبائن المكان من الاثرياء العرب ، وان نوادر كثيرة تروى عن نقودهم المهدورة على موائد القمار امام الساحرات (الارانب) ، وعن تخفي بعض الشخصيات العربية المعروفة خلف نظارتين او في ركن معتم حينما يمر من يعرفهم ، الامر الذي يحدث باستمرار . . . حتى كاد المكان يستحيل الى منتدى عربي لصرف (الممنوع من الصرف) . . . وان النقود العربية التي تخرج من تحت ارض العرب وتصب في بالوعة (البلاي بوي) تكفي بلا شك لشراء محطة اذاعة تلفزيونية في اوروبا او جريدة تُسمع العالم من خلالها صوتنا . .

وربما كان من سخرية القدر (او جهلنا) ان المطعمين العربيين اللذين يقدمان

Akhawia.net

اطعمة عربية واغاني عربية ، ويجتمع فيها الطلاب العرب باستمرار واسمها « سورايا » و « سارابيا » يمتلكها صهيوني ، وصهيوني جدا !! والاغرب من ذلك ان الصحف والمجلات العربية تباع في « سورايا » الواقع في (غلوستر رود) في منطقة كينسنغتون حيث يقيم اكثر العرب . . . ترى هل يتعمد اليهودي بيعها لهم ؟! . . وهل هو بعيد النظر بما فيه الكفاية بهذا الخصوص ؟! وهل يجد صراخنا الخطابي وحماسنا المحلي من نوع غناء وصراخ الاطفال الخائفين في الظلمة ؟ . . متى يقاطع العرب هذه الامكنة الموبوءة !

ما تزال الشمس تشرق

ورغم فترة الغضب واللائقة هذه ، كان يعزيني من وقت الى آخر ايماني بانسانية الانسان في كل مكان . . . الانسان الطيب العادي الموجود في كل زمان ومكان . . وقد التقيت مثل هذا الانسان كثيراً في لندن نفسها . . . في مظاهراتنا الطلابية ضد العدوان الاميركي على شعب فيتنام ، وفي شخص ساعي البريد العجوز مثلا ، والذي كان اول نسمة انسانية ترطب نوبتي العدائية المحمومة . . فقد اعتاد هذا الانسان الطيب لهفتي على الرسائل القادمة من اصدقائي في مختلف الاقطار العربية . . فهي - مهما كانت مشحونة بالاخبار الحزينة - تعيدني للحظات الى عالمي الغالي رغم كل ما فيه . كنت الوحيدة في البناء الكبير التي لا تتذمر كلما ايقظها لاستلام رسالة مسجلة في لحظات الصباح المبكرة . . وهكذا صار يوقظني لاستلام اية رسالة ، مسجلة كانت او غير مسجلة . . ويحدثني عن الطقس والحرب العالمية الاولى التي خاضها وسباق الكلاب واحفاده . . وكنت انتظر رسالة من صحفي ليبي ووطني كبير دخل السجن الملكي بسبب مقال كتبه بعد الهزيمة وكان يكتب لي من السجن ، ويتولى اصدقاؤه ارسالها بالبريد من روما او من اية عاصمة اخرى . . وكان يلحظ كل يوم انني اقلب الرسائل بحثاً عن رسالته ، وحينما لا اجدها يشتعل وجهي كآبة . . واهمل حديثه عن الطقس والحرب العالمية الاولى وسباق الكلاب واحفاده . . .

ذات يوم ايقظني جرس الباب كالعادة . هبطت السلم الطويل مسرعة . وهناك وجدت ساعي البريد العجوز بوجهه الانكليزي البارد يقول بهدوء ومحبة : لا رسائل لك اليوم يا سيدتي !! آسف . . ثم ناولني عن الارض زجاجة الحليب التي تركها بائع الحليب ومضى وهو يقول : طقس جميل . . . وكانت تمطر طبعا . . .

وفي مداعبته الطيبة ، رأيت آلافا من البسطاء مثله ، الذين تسرق قلوبهم كلمة طيبة . . . وفكرت : كم من الآلاف البسطاء امثاله الذين لا مصدر لاعلامهم سوى

Akhawia.net